خمس حواس للحب

نوفيلا

صابرين الديب

By: Asmâa Silver

خمس حواس للحب

نوفيلا

بقلم

صابرين الديب

غلاف/ **أسماء سيلفر**

تصميم داخلي/ **صابرين الديب**

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم

للانضمام للحلم

https://www.facebook.com/groups/7elmhon

كلمة الكاتبة

هذا العمل واقعي...

لا..

انتظروا، لا تهربوا.. توقفوا عن الركض.. كانت زلةً مني، صدقًا..

هذا العمل ساخر..

إمممم.. ربما قليلًا!..

هذا العمل رومانسي..

حسنًا، نعم.. والكثير من الـ نعم..

وليستْ رومانسية على طريقة لا تخافوا ولكن احذروا..

هي رومانسية لطيفة، دافئة للغاية..

هيا معي إذًا..

نبدأ حكايتنا..

في خمس حوادث للحب..

رباه...

لا.. كان هذا خطأً إملائيًا؛ تبًا لك أيها المصحح الأحمق..

قصدتُ حواس..

خمس حواس للحب!..

صابرين الديب

إهداء

إلى أوجه الحب الكثيرة التي لا نراها..

الحب أعمى، أبكم، أصم..

الحب لا يمتلك قلبًا ليشعر.. لا نستنشق معه عبير الزهور عن بُعد كما يتغنى الشعراء..

الحب ورطة..

وأنتِ عزيزتي بلهاء إن ظننتِ أنكِ ستقعين في الفخ بكامل إرادتك دون أن ينطبق على نبضك بغتة، بلا مقدمات أو رحمة.. فيبدأ معزوفة النزف!..

ليلاس مندور

مقدمة واقعية

اسمي "شام هيكل"..

أنا امرأة عادية للغاية..

أشبهك، وأشبهها، وأشبه تلك البعيدة هناك..

زوجة لرجل بسيط، ليس ثريًا كرجل أعمال، أو وسيمًا ممشوقَ القوام، عريضَ المنكبين مفتولَ العضلات، كبطل رواية أنهيتها فجر اليوم بعد سهر ليلتين متواصلتين..

ليس عاشقًا رومانسيًا حالمًا كذلك الممثل التركي ذي النظرة الخاطفة، ولا حتى رجلًا آليًا كآخر إلى أن أتت بطلته الجميلة وأفقدته صوابه..

أم لطفلين رُغم أنني لم أكمل الثامنة والعشرين من عمري بعد..

أكبرهما أتم عامه السابع قبل شهر، والأصغر سيتمم الخامس بعد يومين..

أنا عادية..

هو عادي..

وتلك هي حياتي العادية، الروتينية جدًا جدًا..

***

اسمي "ليلاس مندور"..

كاتبة روايات رومانسية، أطوف بخيالاتي ذلك العالم الأزرق الواسع بصحبة أبطالي وبطلاتي..

أُدشن الحبكات الناعمة، أقلبها رأسًا على عقب..

أُغرق بطلًا في حب يائس، وأكسر قلبها في حب من طرف ثالث..

لستُ قاسية، لكني أحب الواقعية، وبذات الوقت لا أبخل بالنهايات السعيدة أحيانًا..

أنا عزباء ربما للأبد..

فبعد كم الرجال الذين مروا بسطوري لن أأتمن رجلًا على قلبي وحياتي..

كلهم أوغاد يا أعزائي..

لي صديقة واحدة، متزوجة قابلتموها في الصفحة السابقة، نعم.. هي "شام".. الحانقة، المتمردة على حياتها الهادئة، وزوجها الذي أراه طيبًا لا يستحق منها ذاك التمرد والنكران..

صديقتي التي من المفترض أن أقابلها على إفطار خاص من يديها بمنزلها الدافئ خلال ساعة لكنني أكثر كسلًا من حلزون صغير ملتصق بقاع الهامور..

نعم أنا أشاهد الرسوم المتحركة لا داعي للضحك، أراها ترفيهًا لطيفًا بعد مذابح رواياتي..

إحمممم..

عذرًا.. نسيت أني أخبرتكم كوني كاتبة رومانسية..

رومانسية جدا.. وللغاية وحتى الرمق الأخير..

سأقفز بعد نصف ساعة خارج الفراش أعدكم، نصف ساعة و.... حسب..

مشهد داخلي..

غرفة مظلمة إلا من بصيص شمس نهايات الصيف..

وتثاؤب ثم عودة إلى النوم!..

النوم هو أكثر الأمور بهجة على هذه الأرض..

أراكم بعد قليل..

***

صباح مكرر، روتيني.. أنوي تغييره!..

العزباء وبلغة أقرب "السينجل" المحظوظة تأخرت، أقسم أن أريها من الويلات ما لا تُطيق، حددتُ معها موعدًا قبل الثامنة وها هي الأرقام قد قفزت تعبر السابعة وخمسًا وثلاثين دقيقة..

زوجي العزيز يرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب لعمله، وصغيري الأكبر ينتظره قرب باب المنزل ليوصله في طريقه إلى المدرسة بعدما فوت موعد حافلته..

أو أنا من فوتُها، لكن ماذا عليَّ أن أفعل!..

كانت سهرة طويلة مرهقة مع رواية جديدة لم أستطِع تركها حتى بلغتُ خاتمتها وأنا أحسد بطلتها على ذلك البطل الذي كانت بحماقتها ترفضه في بداية الحبكة..

هكذا هن ساكنات الورق.. لا تقدرن نعمة رجالهن إلا عقب كوارث وتعقيدات لم يكن لها داعيًا منذ الصفحة الأولى..

ماذا نقول!.. السياق يريد، وهن حمقاوات..

"عاوزة حاجة وأنا راجع من الشغل!"..

اقتحم شرودي الحالم بسؤاله الروتيني مثله ومثل أيامي معه، استدرتُ إليه وأنا أنهى شطيرة طفلي الأصغر، أضعها بصندوق غذائه الذي اختاره على طريقة الرجل العنكبوت والذي على ما يبدو سيتحول إليه قريبًا ويتعلق في أحد الثريات بغرفة المعيشة مطلقًا خيوطه العنكبوتية في كل ركن..

أجبتُه بإشارة مبهمة عشوائية:

ـ لأ.. لو افتكرت حاجة هابقى أبعت لك على الواتس..

أومأ برأسه وتوجه إلى الفتى المنتظر، ساعده على ارتداء حذائه، قبض على يده وحمل مفاتيحه استعدادًا للرحيل، عندما فتح الباب تقابل مع صديقتي الرعناء التي كانت على وشك الطرق بطريقتها الفوضوية المحببة لقلبي، أهدته بسمة لطيفة بادلها إياها ثم أخفض ناظريه أرضًا يغض الطرف عنها مرحبًا بخفوت..

نعم يا سادة.. زوجي رقيق، على قدر من الالتزام لا بأس به.. وخجول!..

غادرنا يصطحب طفلنا الذي شعثتْ صديقتي خصلاته الناعمة كأبيه بمرح:

ـ ميزو..

دفع هو يدها بحنق مغتاظ لا يليق بعمره، متذمرًا:

ـ اسمي معاذ..

ينقصه شارب ولحية كثة هذا الفتى، لكنه حكاية أخرى لذا.. ما علينا..

دخلتْ وأغلقتْ الباب من ورائها، نهرتُها بضيق وأنا أتعجل في خطواتي لإيقاظ صغيري الآخر:

ـ اتأخرتِ يا هانم..

بدأتْ تحل وشاحها بأريحية وهي تتبعني:

ـ كنت باكتب الفصل يا بنتي، وسهرت.. نمت متأخر وأنتِ أصلا باعتة لي بعد الفجر..

أوقفتُها بنظرة من فوق كتفي:

ـ فصل غم زي وشك طبعا، ما تقلعيش الطرحة..

تجمدتْ أناملها بينما تعقد حاجبيها باستغراب:

ـ ليه!.. هو جوزك راجع تاني؟..

ـ لأ.. هننزل ميكو الحضانة، ونعدي على السوبرماركت والسوق نشتري شوية حاجات..

ـ والفطار يا فوزية!..

بعدها أعلنتْ ضيقها وهي ترمقني بنظرة حانقة:

ـ أنا جعانة وما أكلتش قبل ما أنزل..

أجبتُها وأنا أوقظ ابني دون اعتبارات لاحتجاجاتها:

ـ هناكل يا طفسة، بس عاوزة أعمل محشي النهاردة.. هاموت عليه..

ـ محشي!..

بصقتَها بشبه زعيق والفتى العابث على العكس من أخيه يتعلق بساقيها فتحمله وتقبله بحب:

ـ ميكو العسل..

قبَّل وجنتها بعمق عجيب وهمس لها بإشارة نحو المجهول:

ـ قولي لي يا كريم، بابا بيقولنا الرجالة ما بتدلعش..

أعادتْ له قبلته وهمستْ له بالمقابل:

ـ بابا عنده حق..

تناولتُه منها بغيظ:

ـ هما لسه مش رجالة..

خلال عشرين دقيقة كنا قد أوصلنا "كريم" إلى حضانته، وفي طريقنا إلى السوق لشراء مستلزمات وجبتي الدسمة، عُدنا بعد نصف ساعة أخرى إلى المنزل..

تخلصتُ من وشاحي وحملتُ ثمرة الكرنب البيضاء الفاتنة إلى المطبخ، أنهيتُ تبديل ثيابي، صنعتُ لنا بعض الشطائر جوار الشاي المنكه بالقرنفل..

حان وقتنا ثرثرتنا الخاص قبل التحضير لحرب "الخلطة القادمة!..

على أريكة أمام التلفاز تجاورنا، نشاهد إحدى حلقات مسلسلي التركي الذي أتابعه حاليًا، ترمقني هي بامتعاض وأنا أركزُ مع الشاشة والبطل المدله في حب البلهاء حمراء الشعر..

ـ المسلسلات دي لحست مخك والله..

وكزتُها دون أن أنظر إليها في انتظار قبلة منه ليدها وعينيه بعينيها كأنما يخبرها سرًا عن العشق والغرام:

ـ خليكي أنتِ في نكدك..

ضربتْني وأدارتْ وجهي إليها قسرًا:

ـ يا بنتي أنتِ متجوزة راجل زي النسمة..

ابتسمتُ لها بسماجة:

ـ ما هو عشان زي النسمة..

وليتُها اهتمامي بإثرها:

ـ ماله الراجل الوقح اللي يتحرش بيَّ ويعاكسني في البيت وما يبقاش قادر على بعدي!..

تنهدتُ بشرود غائب في دنيا الأمنيات:

ـ ولا حتى الغيور!.. يغير عليَّ من الهوا ولو حد بص لي يدغدغه..

لوتْ شفتيها بمصمصة عجوز سبعينية:

ـ اللي بتتكلمي عنهم دول لو في الحقيقة مش هتتحمليهم والله..

قلدتُ حركتها بعناد مكابر:

ـ أنتِ بتتكلمي من الناحية النظرية!..

زفرتُ بحرارة، وضيقي يظهر جليًا بخطوطه الداكنة فوق ملامحي:

ـ الحياة المملة بتخنق يا ليلو، أنا حاسة إني بانطفي كل يوم.. مافيش جديد، مافيش حماس، مافيش تغيير..

استندتُ بظهري للمسند وتغضن جبيني بسخط على واقعي البائس:

ـ دوامة ما بتتبدلش، ما بين إني أصحي الولاد، اللانش بوكس، بابا يفطر ويروح شغله، أجهز غدا وأتفرج على التي في.. يرجعوا كلهم ياكلوا ويناموا وأنا لوحدي.. أو بعمل الهوم وورك.. تعبت!..

وجدتُها تربت على ركبتي برفق:

ـ طيب ما فكرتيش تشتغلي أو تمارسي هواية!..

ـ أنا مش بتاعة شغل وتعب، أنا فرهودة..

كان ذاك جوابي المتبرم، أكملتُ بنهايته ناقمة:

ـ أنا مش عاوزة تغيير من ده، عاوزة من التاني.. بتاع الروايات..

أقسمتْ لي يائسة من أفكاري وطموحاتي:

ـ والله لو جوزك زي واحد من الأبطال دول ما هتقدري تكملي معاه..

أهديتُها بسمة باردة واستقمتُ آمرها بحزم:

ـ طيب قومي يلا، ورانا حلة محشي هتتلف..

ـ أنتِ جايباني تشغليني!..

ـ اعملي بلقمتك..

هددتني برقتها المعهودة:

ـ لأ.. أنا هاروح لأمي تغديني ببلاش..

منعتُها بخبث ماكر:

ـ أنتِ بتموتي في المحشي بتاعي، بعدين عاوزاكِ في موضوع مهم بعد ما نخلص!..

استفسرتْ بفضول.. قتلتُه في المهد وأنا أسبقها إلى المطبخ..

نعمل سويًا على الوجبة اللذيذة، بعدما تصاعدت الرائحة لتملأ أركان المنزل كنا متجاورتين بتهالك على ذات الأريكة وأنا أخبرها بخطتي:

ـ عاوزاكِ تكتبي لي مشهد مع بطل من أبطالك..

تصلبتْ للحظة..

كما يبدو تجمدتْ أفكارها في حيز الغباء..

حملتْ وسادة ووثبت تجثم فوقي، تحبس بها أنفاسي وتصرخ:

ـ أنا هاقتلك وأرتاح منك، هو ده الموضوع المهم!..

دفعتُها وضحكاتي تعلو رُغمًا عني:

ـ ليلو.. حبيبة شام، مضطرة أعيش الواقع.. على الأقل أحقق حلمي على ورق..

رمقتني بحنق ظاهر وعادتْ لجلستها، تملي شروطها إثر تفكير قصير:

ـ هاخد طبق محشي وأنا مروحة أتعشى بيه!..

ـ اتفقنا..

ثمن بخس مقابل الحلم..

ألا توافقونني!..

فتحتْ تطبيق "word" على هاتفها.. فكرتْ قليلًا قبل أن تسألني:

ـ عاوزة مشهد مع مين يا مدام!..

طعنتهُا بنظرة كسهم قاتل مع اللقب السمج، تجاهلتُه ولم أفكر كثيرًا، الخيار كان جليًا بعقلي قبل عرض طلبي عليها:

ـ بطل روايتك الأخيرة، العابث السافل حبيب قلبي..

ـ النسوانجي!..

همستْها بامتعاض ضايقني:

ـ ماتقوليش عليه كده، ما تنسيش إنه حب الحربوءة واتجوزها وما قدرش يبعد عنها..

هزتْ كتفيها بلا اكتراث، زمتْ شفتيها وبدأتْ تكتب!..

الحاسة الأولى

كُن وقحًا تكُن أجمل!..

**

البداية هنا رومانسية كحكايا الخيال تمامًا..

البداية كانت اصطدامًا سعيدًا!..

تعثرتْ، ارتطمتْ به وسكبتْ عصير الرمان داكن الحُمرة فوق قميصه!..

المتوقع في هذه الحال أن ينهض، يزعق.. يتهمها كنادلة بلهاء بالعمى، ينادي رئيسها ووداعًا للعمل الذي يدر عليها دخلًا بسيطًا ينتهي نصفه في الحافلات العامة..

تراجعت بشهقة وهو يستقيم بحركة حادة مفاجئة، رمته بنظرة مخطوفة دون أن تراه حقيقةً، أخفضت ناظريها

للأرض والبقعة الحمراء تتوسع في ذهنها حد ابتلاعها، تعتذر بذعر وتشيح بيديها في يأس:

ـ أنا آسفة جدا، حقيقي بعتذر لحضرتك..

ـ ما حصلش حاجة لكل ده.. بسيطة..

توالت اعتذاراتها بلهاث مختنق، بلا توقف.. وأنهاها هو بسلاسة، بنبرة رخيمة ثقيلة، وحروف أنيقة.. رفعت بصرها إليه، تتأمله بنظرة ثانية..

والنظرة الثانية هي الكارثة!..

لقد سقطت في أحد أحلامها بسذاجة..

وسيم كما بطل رواية رومانسية ينقصها الكثير من التنهيدات والأمنيات، ذقن غير حليق بعشوائية خشنة، عينان بلون عشب مبتل، خصلات سوداء داكنة، فك صلب، منحوت، وابتسامة تناسب أحد دعايات معجون الأسنان،

حتى أن بريق اللمعان الأبيض توهج ليغشي بصرها المحملق فيه ببلاهة..

أدرك ما تفكر به، هو اعتاد تلك النظرة في أعين النساء.. حان دوره في تقييمها، قصيرة القامة إلى حد ما وإن امتلأت تلك المائة وستون سنتيمترًا بالكثير من مفاتن الأنوثة التي كان قدرها كريمًا معها بها خاصة في زيها المميز..

اعتدل قليلًا يشد جذعه من وقفته المتراخية فاستطالت قامته أكثر، يضيق ما بين أجفانه وتتبدل بسمته اللطيفة لأخرى تُقدر ما تراه، أخرى جريئة مقتحمة رمشت لها بخجل.. تشاغلت بالنظر لأثر فعلتها الحمقاء، تفكر في كيفية محوه، تتعثر حروفها وتتبعثر مشاعرها:

ـ طيب ممكن أجرب فوطة، أمسح العصير!..

أبعد ذراعيه عن صدره، فردهما بعض الشيء وأشار إليها بعبث لتقترب:

ـ I'm all yours..

تقدمت خطواتها تجاه حمام داخلي خاص بالعاملين بالمقهى وهو يتبعها، انغلق بابه تلقائيًا من خلفهما، تناولت منشفة وبللتها، خطت نحوه.. في مواجهته توقفت حائرة، مشتتة خجلى.. كيف تلامسه!..

ارتبكت، تراجعت خطوة حسمها هو بينما يفكك أزرار قميصه بشيء من تلكؤ:

ـ عندي حل أفضل!..

توسعت عيناها ذهولًا، تباعدت بتوتر حتى كادت ترتطم بالمغسلة من خلفها:

ـ حضرتك بتعمل إيه!..

هز كتفيه وهو ينهي ما بدأ بيسر تام كأنما ذاك بديهية المشهد وإن شاب صوته بعض مكر:

ـ باقلع لك القميص اللي دلقتِ عليه العصير، عشان تنضفيه..

ولم يتردد، كشف صدره وناولها إياه وهي تغض الطرف عنه بصدمة مذهولة، عقد ذراعيه واستند بظهره للجدار البارد، يخضعها لمراقبته الخبيثة، أمسكت القميص تركز على البقعة، ترتجف يداها.. تبللها بالماء، يتسرب منها أكثر فتبتل مساحة أكبر.. تكاد تبكي وتخاف وبصرها يهرب منه..

نائيًا عنه..

بانتهاء دقيقتين من صمت استسلمت بقنوط، اعتصرته قدر استطاعتها ووقفت تواجهه بعينين لا تلمحان منه سوى

حذاء أنيق يبدو باهظ الثمن، تهدل كتفاها.. عبرتها غافلتها، وهمستها خرجت مشحونة، مختنقة ببؤس:

ـ القميص باظ..

أتتها ضحكته الخافتة فاحتلت مسامعها، لاحظت خطواته إليها، اقترابه الذي جمدها بمكانها عاجزة عن الحراك.. توقفه قربها، وأنامله التي امتدت تحتوي ذقنها لتجبرها على النظر إليه.. رفع حاجبه مع دمعتها وبجرأة أجفلتها مسحها بإبهامه، ابتسم بجاذبية وتمتم يطيب خاطرها:

ـ ده مجرد قميص، ما يستاهلش دموعك..

تلعثمت بارتباك، عقلها يحثها على الابتعاد وجسدها متيبس بين يديه بغرابة:

ـ بس.. بس.. حضرتك...

ـ حضرتي مش متضايق، ما تضايقيش نفسك..

غابت في عشب عينيه الندي بعد مطر صباح خريفي، ابتسمت بشرود وهمسه يتخلل حواسها، يسيطر عليها:

ـ بس لازم تساعديني، مش معقول هامشي كده!..

تراجع بغتة يفرد كفيه في مواجهة صدره المكشوف أمام عينيها فانتفضت بحياء تدير بصرها عنه، تسأله بشتات:

ـ ممكن أعمل إيه!..

أخرج محفظته من جيبه، ناولها بضع وريقات بهمس مرح:

ـ في محل رجالي جنب الكافيه، هاتي لي حاجة على ذوقك..

مجبرة رفعت نظرتها المشدوهة إليه فغمزها بشقاوة:

ـ هاثق فيكِ..

احتارت أكثر.. ارتجفت أكثر..

ركضت تتخطاه ورأسها ترتج بإيماءة موافقة طائعة كأنما تهرب من محيطه الذي أخل بتوازنها، أوقفها قبل أن تفتح الباب:

ـ ما عرفتش اسمك!..

تجمدت خطواتها، استدارت إليه ببسمة وأهدابها يتعاقب عناقها الخجول بلا فارق توقيت:

ـ شام..

ـ شام!..

نطقه من ورائها بتأنٍ، يتذوق أحرفه حرفًا حرفًا، يُطبقه عليها بنظرته، ثم يبادلها البسمة وإن كانت خاصته ساحرة.. آسرة، جذابة لا تخلو من عبث:

ـ اسمي بيبرس..

وصمت لثانيتين دون زيادة تمَّم بإثرهما:

- بيبرس لاشين..

أخبرها باسمه على طريقة "جيمس بوند".. لوهلة خُيل إليها مع انحناءة فمه وانكشاف جزء جانبي من أسنانه أن وميضًا ما قد تألق لهنيهة بما يناسب المشهد..

شطحت بخيالها لتتوهم عصابة من الأشرار العالميين يطاردون الرجل الوسيم، الذي دخل لمحل عملها بغتة واصطدم بها بلا تمهيد، بعد نظرة واحدة بينهما يجذبها لركن مظلم، يحاصرها أمام جدار..

يتظاهر بالعشق والقبلة..

أو ربما يقبلها بالفعل!..

حتى يمر الأوغاد فلا يروه أو يأسروه، وحينها يبتعد.. يعتذر بسحره غير البشري، يقبل أناملها ويشكرها على إنقاذ حياته.. عقبها يصحبها معه في مهمة مستحيلة وموسيقى

"مونتي نورمان" تنطلق في الخلفية بحماسها المألوف للأذن..

وصولًا لمشهد النهاية حيث ينطلق البطل الأسطوري بسيارته الرياضية المكشوفة التي تسير بسرعة خرافية لم تُسجلها عدادات السيارات بعد..

سيارته الخاصة جدا والتي تحمل لوحة أرقام (007)..

تفاجئت بطرقعة أصابعه في مواجهة عينيها حتى أنها أجفلت وارتدت ترتطم بالباب في حيرة وحياء استوعبه بلؤم..

همس لها عقب اقتراب لا يفترض به أن يحدث:

ـ كده ممكن أبرد..

توترت وعادت لوجهتها الراحلة، أوقفها مجددًا بهمسة تبعتها حتى أغمضت عينيها ليلًا لتحلم به:

ـ على فكرة، اسمك حلو زيك..

رمشت وهي تشعر بإغماءة قريبة، الخيال لا يتحول لحقيقة بهذه البساطة.. بل لا يتحول من الأساس!..

هرولت للخارج تنتقي له ما أراد حسب ذوقها المتواضع، عادت به إليه فتناوله منها يتأمله بعين راضية، يرتديه، يزرره ببطء وعينيه عليها:

ـ ذوقك أنيق وبسيط..

طأطأت بوجهها أرضًا، سمعته يردف:

ـ زي ذوقي بالظبط..

رفعت عينيها إليه فأغدق عليها بإحدى بسماته الساحرة، وغمزة سرقت قلبها في لحظة:

ـ هاشوفِك تاني..

يقررها بحزم، يغادرها وقد ترك كل أثر بروحها..

أتراه صادقًا!..

أتراه سيحاول اللقاء مجددًا!..

تابعت خطواته، هيئته الآسرة.. حتى حركاته الراقية في دفع حسابه وسحب مفاتيح سيارته، قبل أن يرحل تمامًا أهداها نظرة أخيرة..

بصمة لن يمحوها زمان من كيانها مهما حاول..

***

قرأتُ المشهد وبين كل سطر وتاليه كنتُ أطلقُ تنهيدة، أتخيل.. أحلقُ عاليًا وأغرقُ عميقًا، أغوص وأطفو وأحلم..

نظرتُ لصديقتي بامتنان مبتور:

ـ حلو قوي يا ليلو، بس أنا كنت عاوزة أبقى مراته!..

ـ آه يا سهلة يا سافلة يا رخيصة..

ضحكتُ باستمتاع ولكمتُ ساقها بشيء من عنف:

ـ يا بنتي أومال أنا باقولك أكشن ليه!.. عشان تجيبنا لسه بنتعرف..

نهضتْ "ليلاس" تتوجه للمطبخ، تتبع الرائحة الشهية حيث حلمها هي يقبع في قدر على الموقد بانتظار تمام النضج:

ـ هابقى أكتب لك جزء تاني لما تعملي لي مكرونة بالبشاميل..

تبعتُها والوعد يطن بأذني:

ـ نفسي أفهم الأكل ده كله بيروح فين!.. أنا لو ما حافظتش وعوضت بالرياضة هاضيع..

سألتني بسخرية وهي تلتقط إصبعَ محشي لامعًا، ملفوفًا بعناية، تنفخ فيه ليبرد، تتشممه، تقضمه وتئن مع سخونته لكنها لا تبالي:

ـ ده حسد ولا قر!..

تناولتُ واحدًا أنا الأخرى:

ـ الاتنين يا حبيبتي..

سألتها بفضول عما نسيته بينما تستعد للرحيل بعد وجبتنا الدسمة:

ـ بس اشمعنى سميتيه بيبرس!..

هزت كتفيها ورمقتني بنظرة مبهمة بها شيء من سماجة:

ـ أول اسم جه في بالي، وطلع مناسب أهو..

بعد ساعتين عاد زوجي.. التهم طعامه بشهية، أثنى على طهي يدي الرائع، طالبني بكوب الشاي الأثير، تجرعه باستمتاع أمام فيلم قديم، نام الصغيرين في استعداد ليوم جديد وجاورته أنا بينما يتمدد على الأريكة والتثاؤب يغلبه:

ـ الفيلم ده حلو قوي..

كان فيلمًا أمريكًا رومانسيًا بائسًا بعض الشيء، لكنه يفيض بالمشاعر.. همهم من وسط نعاس يبدو أنه سيسحبه لعالمه مجبرًا:

ـ نشوفه سوا..

سحبني لأجلس، وضع رأسه فوق ساقي وبدأنا المشاهدة..

ربع ساعة تالية وغرق في النوم كما توقعت!..

شعرتُ بالغضب، أنا أقضي يومي وحيدة لحد كبير.. ما بين الأعمال المنزلية، التحضير له ولطفلي، استقباله بما يليق..

وهذه هي النهاية؛ نام وتركني!..

كدتُ أبكي، قررت عقابه، لن أوقظه، سأتركه على الأريكة حتى الصباح ولينعم بأحلامه الكبيسة كقدر المحشي المأسوف عليه فارغًا بمغسلة المطبخ..

أنهيتُ روتيني اليومي للعناية ببشرتي، شيئًا لا أتنازل عنه.. فمن بين كل تلك الأعباء نفسي وجسدي يستحقان بعض الدلال، انزلقتُ أسفل غطائي الثقيل، فتحتُ هاتفي لأعيد قراءة مشهدي مع عابثي..

و...

غرقتُ في النوم!..

***

إن لم تتحقق أحلامك؛ ما رأيك لو ركضتَ أنتَ إليها!..

سقطتْ في نوم عميق، وهناك كان هو بانتظارها، لقاء من تخطيط القدر فالصُدف لا تصنع الواقع كما تؤمن..

كانت تتناول إفطارًا مكونًا من الكريب بخليط الجبن الذي تعشق، إلى جواره كوبًا ضخمًا من عصير التوت المخلوط بالحليب..

نهاية الأسبوع، يوم راحتها.. ودلالها لنفسها؛ حين دخل هو للمكان بوسامته الخاطفة للنظر والقلب..

دار ببصره فيه سريعًا كأنما يفتش عن صديق، لكنه التقى بها هي!..

رفع حاجبًا مشاكسًا، ابتسم بسحر وخطا إليها بلا تردد أو تفكير، توقف أمام طاولتها العالية، يرمقها بنظرة تقييمية سبَّت نفسها على أثرها، كونها ترتدي ثيابًا بسيطة للغاية، مجرد سروال من الجينز وقميص خفيف، حتى خصلاتها معقوصة بعشوائية..

على ذكر الخصلات تذكرت أنها ترتدي حجابًا "دنيا الأحلام يا سادة"..

ناداها بنبرته المميزة:

ـ شام!.. يا ترى فاكراني!..

رفرفت بأهدابها بلعثمة خجول تهديه نعم هامسة بالكاد أدركها، دون تمهيد أو ديباجة لبقة مستهلكة سحب المقعد المقابل لها، استقر به بحركة راقية مشيرًا من وراء ظهره:

ـ كنت جاي أقابل واحد صاحبي، بس اتأخر.. والظاهر إني حظي حلو!..

اختنقت بسؤال متحشرج:

ـ ليه!..

مال فوق الطاولة يرمقها بجرأة وكفه تتسلل لكفها:

ـ عشان قابلتك..

أبعدت يدها بارتباك ابتسم له بخبث..

امتد بهما الوقت بلا شعور، ثرثرة عن كل شيء وأي شيء.. ابتداءً من العطور الرجالية التي أخبرته بما تفضله منها، وصولًا لطعامها المفضل..

نهض يغادر وأصر على توصيلها، في السيارة جاورته بوجه حالم ونظرة غائبة بمتاهة الأمنيات.. توقف أسفل منزلها القديم، سحب يدها يحتويها بين كفيه فشعرت بخشونتهما، بدفئهما..

بلمسته التي أشعرتها بأنوثتها بلا انتهاك حدودها..

ـ هاقابلِك بكرة..

ـ بكرة!..

قررها وتساءلت.. همستها بشحوب واجف ورعشتها تصل إليه، ضم كفها أكثر:

ـ أيوة.. مش هاسيب حاجة تاني للصدفة..

رفعها لشفتيه، يقبل ظاهرها بكياسة أرجفتها:

ـ هتوحشيني..

طارت لمنزلها..

لم تكن تمسُّ الأرض، الأمور كانت خارج حدود المنطق والمعقول.. عانقت يدها بيدها الثانية، ضمتها أمام صدرها في مواجهة المرآة.. تتأمل حمرة وجنتيها، سخونة بشرتها وتكاد تستشعر أثر قبلته الذي لم يرحل بعد..

.....

في اليوم التالي قابلته، والذي يليه.. ويليه ويليه..

ظلا يتقابلان لأكثر من شهرين، وفي كل لقاء كان يكسر بينهما حدًا، تعشقه ويسقط في هواها، يشاكسها.. يداعبها، يزيد من جرعة وقاحته وتتقبل هي بنفس راضية، بل متطلعة للمزيد..

مزيدٍ رأى رغبتها فيه بعينيها فلم يتأخر..

كانا وحدهما عند قمة جبل المقطم، حيث سيارته قريبة من الحافة، هو وهي وضوء خافت.. موسيقى هادئة احتواها

على أنغامها بين يديه، يراقصها.. يدور بها ويدير عقلها وأفكارها ووعيها..

يهمس لها بالعشق..

بقوانينه التي حطمتها..

بقلبه الذي امتلكته:

ـ عمري ما كنت أتخيل إني ممكن أحب بالسهولة دي يا شام..

هو أبدًا لا يدلل اسمها، يناديها به متماسكًا في قطعة واحدة، بذات الأحرف.. يخبرها أنها وحدها عنوان الدلال، كفه تضغط خصرها فتجبرها على الاقتراب من صدره، أنفاسه تداعب خصلاتها وهمس أحرفه يخترق أذنها مباشرة..

يقفز فوق حواجزها ويهدم حصون ثباتها بلا هوادة:

ـ قلت الكلام ده لكام واحدة قبل كده يا بيبو!..

تراجع لمسافة قصيرة يرمقها بنظرة ماكرة:

ـ قلته لألف واحدة..

شهقت وضربت كتفه، أرادت التحرر منه فكبلها إليه ضاحكًا بشقاوة:

ـ يا مجنونة..

وألبس نبرته رداء الجدية حد دهشتها:

ـ هي أسطوانة مشروخة، بس أنتِ أول واحدة تجبر قلبي يحسه بجد..

مطت شفتيها بغيظ حانق:

ـ كداب..

ـ أحلف لِك!..

تملصت من ضمته لكنه حاصرها أكثر، تحرك معها حتى احتجزها أمام السيارة فارتبكت.. ارتجفت.. تطلعت إليه بشيء من خوف أراد محوه:

ـ الكلام سهل يا شام..

أمسك بكفها يفردها فوق هدير نبضه الجنوني قربها:

ـ بس ده عمره ما يكدب عليكِ أبدا..

همهمت بحروف مبتورة مبهمة لم يدعها تكمل أيًا منها.. التقمها من بين شفتيها حرفًا حرفًا وحصاره يلغي صحوتها، يشتت تركيزها.. يحجب عنها العالم، يرميها بأعماق ضباب لا ترى فيه، لا تسمع أو تشعر إلا به..

بعد لحظات غياب أفاقت على لمسة يده التي تمادت لكسر حد جديد، شهقت تبعده.. تخفي وجهها المحترق بحمرته عنه، تعلن غضبها المفتعل بدلال:

ـ بيبرس إوعى تعمل كده تاني، روحني يلا..

استجاب لها ببساطة وبسمة واسعة تحتل فمه، مال يهمس بأذنها متخابثًا وقحًا قبل أن يتجه لمقعده:

ـ أنا ناوي أعمل اللي أكتر من كده..

تكررت شهقتها وفرت منه إلى الداخل، تدير وجهها عنه.. تبتسم بلذة وتتخيل الأكثر!..

عند منزلها ودعته، بعدما طبع قبلة طويلة بباطن كفها، هرولت تعبر المدخل حينما سمعته يناديها، توقفت ترمقه بحيرة فنَّدها وهو يناولها هاتفها بغمزة:

ـ وقع منك..

أمسكتْ به وتمسك هو الآخر، نهرته باسمه فكانت النتيجة أن سحبها إليه، دار بها وأسندها لجدار أسفل الدرج شبه

المظلم، أعاد على ثغرها نثر جرأته وامتلاكه، تراجع يعانق أنفاسها الضائعة بأنفاسه وهمسه يزلزل كيانها:

ـ بحبكِ يا شام..

غرقت بعينيه.. الضوء الخافت أكسبهما دُجنة ضاعفت من سحر العشب المبتل بمقلتيه، تنهدت تريح كفيها فوق صدره، تتنصت على انفجار نبضه، تهمس له بالمقابل:

ـ أنا كمان بحبَك.. على فكرة يعني!..

زفر باحتراق وحاوط وجهها براحتيه، يتأملها حد التيه والصحوة والنشوة والغياب في مزيج مختل:

ـ تتجوزيني!..

ـ ها!..

فغرت فاهها وعرضه يقذف بها من فوق أعلى جبل..

الحلم يتحقق!..

بمزيد من الاقتراب قبلته هذه المرة كانت أكثر تملكًا، استحواذًا ورغبة:

ـ باقوللك عاوز أشرب شاي مع الحاج..

وقد كان..

.....

في دنيا الأحلام، السعادة حقيقة والواقع وهم!..

زفاف أسطوري، أوسم رجال الأرض، وأجمل فتياتها.. موسيقى ورقص وأمنية وبهجة تكاد تشع من مسام جلدها..

بصرها معلق به..

وعيناه معلقتان بها..

تدور في دوامته، تتيه، تغرق.. تتمنى ألا تعود للشاطئ الجامد، هنا في الأعماق وُلِد السحر، وهي ستخضع له..

ليبتلعها.. لن تكترث، ستغترف من الحلم قدر ما أمكنها، ولن تتنازل حتى لو كان الواقع أحق بها..

انتهى العرس، هي معه.. قربه، يفتح باب منزلهما الدافئ، اختار أن يقضي الليلة به، يشاغبها بوقاحة، يخبرها أن ما سيفعله معها بعد قليل سيتسبب في فضيحة، جدران بيته أولى بها..

حينها تضرب ذراعه بقبضة رقيقة وتولي وجهها المشتعل بحمرته بعيدًا عنه..

انحنى يباغتها، يضمها إليه ويحملها عاليًا بين ذراعيه، تشبثت بعنقه شاهقة، مذعورة:

ـ بيبو نزلني..

احتواها أكثر وهمس بأذنها:

ـ ما تخافيش وأنتِ معايا، أكيد مش هتقعي..

استمرت خطواته حتى غرفة النوم دون محطات توقف:

ـ إلا في حبي، وده أنتِ وقعتِ فيه من زمان!..

لكمت كتفه للمرة الألف قبل أن ينزلها قرب الفراش المزين، يتحسس وجهها برقة..

يبتسم بوسامة ركضت خلفها دقات قلبها، وبلا تنبيه يقرر أن ينالها..

يقترب، يحاصر، يضم.. على حين غرة أدركت أنه تخلص من الثوب، من سترته وقميصه حتى أن كفيها لامست عضلات بطنه المشدودة، وقتها هتف عقلها بذهول مبتهج..

"الله.. six packs"..

لم تدرك ما جرى أو تتابع تفاصيله، كانت غارقة.. معه..

أو غارقة في الحلم..

وفي الحلم هناك جدار مموه يحجب كل شيء إلا ما يهم عقلك عرضه واستيعابه، صورة مجملة دون توسعات لا حاجة إليها..

وما يهمها هنا أنها باتت زوجته، نائمة براحة وسكينة بأحضانه.. متخمة بالرضى، والسرور..

سرورًا قد تعتاده..

تريده.. وتتمناه!..

.....

كيف يمر الزمان بالأحلام!..

تلك الأوقات الجميلة نتمنى لو عشناها لحظة بلحظة، حفظنا خباياها وتُهنا في دروبها..

لكن للأحلام قاموس خاص، نظام مختلف..

مرت ثلاثة أشهر على زواجها منه، ثلاثة أشهر من النعيم والدلال والجنة..

والوقاحة!..

التحرش واللهفة والشغف..

كل ما تتمناه في رجل تجسد فيه، وليته كان واقعًا..

بكل مكان بالمنزل ترك ذكرى، خلَّف بصمة.. هنا قبَّلها، هنا امتلكها، هناك أصر على أن تنام بين ذراعيه.. وفي رابع أغار على حواسها بجنونه..

كانت غائبة عن وعيها ولا وعيها، كل عالمها تقلص في جدران احتوتها معه..

هاك يوم جديد..

أخبرها أنه سينهي عملًا هامًا وسيعود متأخرًا، لذا يمكنها أن تبيت ليلتها بصحبة أمها التي كانت في زيارتها..

عارضته، أخبرته عن افتقادها ودللها بجرأته المعهودة، وعدها أنه سيعوضها لكنه لا يريد أن تكون وحيدة دونه..

استجابت..

قبيل منتصف الليل أنهت مكالمة معه واندست أسفل دثارها الثقيل، تنام في حلمها عسى أن تلقاه في حلم آخر.. حلم داخل الحلم وسلسلة لا تنتهي، مرت ساعة، لم تستطع النوم..

الفراش المختلف..

غياب دفئه..

نهشها الأرق..

قررت أنها وإن لم تكُن معه، فستضم وسادته وتغرق في عبقه وبقايا عطره، نهضت، ارتدت ثيابها وأعلنت لأمها رغبتها في العودة لمنزلها، لامتها السيدة الطيبة أنَّ الوقت

قد تأخر، لكنها أصرت فما كان بيدها إلا أن طلبت ابن خالتها القريب ليوصلها بسيارته..

فتحت باب منزلها بهدوء، استقبلها ضوء خافت انتفض خافقها على أثره أملًا..

أتراه عاد!..

تسللت بحذر في نيتها مفاجئته بعودتها، قرب باب غرفتهما توقفت.. الصوت الآتي من خلفه، الضوء المتسرب من أسفل عقبه..

سترته التي تعثرت بها فكادت تسقطها..

وثوب!..

ثوي نسائي داكن الحمرة كدماء قلبها النازف بهاته اللحظة..

تستمع لخيانته، لأنفاسه التي كانت تلاحق أنفاسها هي..

لبذيء حديثه الذي أصابها بالقرف، للضحكة والهمسات، حتى أتت الطعنة التي لم تسدد لصدرها بل نحرتها من الوريد إلى الوريد..

كانت بنبرته التي تعشقها ردًا على سؤال عاهرته:

ـ مالك يا عريس!.. مش راضي عن العروسة ولا إيه!..

ـ بيري.. عروسة إيه بس!.. ما تقوليش غيرانة!..

كسرتها رنة الخلاعة في ضحكتها التي جاوبته بها قبل أن يهتف هو بنشوة تامة وفجاجة سوقية لم تتخيلها فيه:

ـ أمووت أنا..

لم يمكنها الصمود..

لن تموت تحت أقدام خيانته، لن تقبل أو تصمت..

دفعت الباب بعنف فانتفض الاثنان!..

هربت الفاتنة الصهباء تستر جسدها بشرشف، واعتدل هو يرمقها بغضب!..

كأنما يحنقه أن بترت لحظات فجوره..

استقام يرتدي ثيابه، يراقب رحيل امرأته التي لم تنطق بحرف، يعقد حاجبيه ويناظرها بثورة مكبوتة:

ـ أنتِ إيه اللي رجعِك!..

ارتدتْ خطوة كأنما صفعها بأقصى ما يملك من عنف وشراسة:

ـ ده بيتي يا بيبرس، وده سريري..

ثم اقتربت تصرخ بقلة حيلة:

ـ سريري اللي كنت فيه مع واحدة تانية غيري..

وقفت تواجهه، تتوالى لكماتها لصدره، تمتعض من عري جذعه، والعضلات الصلبة التي جذبتها يومًا:

ـ بتخوني.. بعد تلات شهور جواز!.. ليه تخوني!.. أنا قصرت في إيه!..

كبَّل مرفقيها وأجبرها على النظر إليه، نظرته تقسو كما قبضتيه ومشاعره تتحجر..

أو هي بالأساس قُدت من صخر:

ـ مش لازم تكوني مقصرة يا شام..

أجفلت مع الجواب الصادم وهو يسخر بفظاظة:

ـ أنا راجل احتياجاتي فوق إمكانياتك.. حاولي تفهمي ده وتستوعبيه، عشان تسهلي علينا اللي جاي..

ارتعشت كأن الصقيع دفنها بين براثن جليده:

ـ يعني إيه!.. أنت ناوي تخوني تاني!..

حررها وضحك بتلذذ، ألمها كما يبدو لا يشكل أي فارق معه:

ـ والله براحتي..

عاد يدنو، يسيطر ويتحكم ويأمر:

ـ أنتِ لما اتجوزتيني كنتِ عارفة إني بتاع ستات، ما ضحكتش عليكِ.. ولا كنتِ فاكرة إني هاتوب على إيدين الملاك البريء!..

لامته بانهزام مكسور:

ـ أنت وعدتني بالحب والسعادة..

غمزها بمكر متبجح:

ـ بس ما وعدتكيش بالإخلاص..

احتجزها بين ذراعيه لا يمنحها قدرة على الإفلات:

ـ ولو سريرك بيزعلك، السراير غيره كتير ولا تزعلي..

بعدها أنهك أنفاسها بقبلة صلبة آلمتها:

ـ مادام ضربتِ الليلة؛ عوضيني بقى..

لكنها لم تفعل.. كل ما فعلته أن دفعته، تفاجأ فسقط على طرف الفراش، صرخت، صرخت حتى بُح صوتها، التقطت مصباحًا جانبيًا تحطم رأسه به.. كان المصباح هو ما تحطم وإن تسبب في جرح عميق بجبينه..

انتهت هلوساتها بسبابه، بصفعة..

بإفاقة!..

***

"أنتِ يا حيوانة"..

"والله لا أقتلك يا ليلاس يا بنت طنط زوزو"..

في الصباح كنتُ فوق رأس صديقتي بغرفة نومها وقد أوصلتُ صغيري لروضته، أضربها بالوسادة، أجذبها من قبة منامتها، وأصرخ داخل أذنها.. أتوعدها وأبكي وأنهار..

راقبتُها تفتح عينيها، ترمقني بحيرة.. يصعقها مرآي، تجفل وتعتدل هاربة مني:

ـ في إيه يا مجنونة!..

أعدتُها حيث كانت، وأنا أنتوي تمزيق خصلاتها بين أصابعي، ونحر عنقها بأسناني:

ـ خانني يا ليلو خانني..

ضربت صدرها بكفها باستنكار مذهول:

ـ خبر أسود!.. جوزك خانك!..

بكيتُ بحرقة وأنا أنهار إلى جوارها:

ـ أيوة.. وفي سريري، وبيبجح فيَّ كمان، بيقولي أنا مش كفاية..

كادت تلطم وجنتيها وهي تحتويني فوق صدرها، تربت على ظهري وتواسيني بعبرات حزينة غافلتْها:

ـ يا ربي.. حبيبتي يا شام، جوزك اتجنن.. ما فكرش في الولاد، وفي سريرك كمان يا بجاحته!..

تيبس جسدي بأحضانها قبل أن أتراجع، أمحو دموعي وأتوقف عن نحيبي.. أتذكر أن الزوج كان حلمًا، والخيانة وهمًا..

أبتسم لها بحرج وأتباعد خشية رد فعلها:

ـ مش أبو معاذ..

ـ نعم يا ختي!..

أخرستها.. حيث كان سبابها الإباحي يوشك على الوصول لأجدادي من الفراعنة:

ـ الحلم.. العابث بتاعك الله يحرقه..

بعد عدة شتائم تقبلتُها منها بخجل، وأسف.. ضربات ولكمات، مصمصة شفاه، اتهامي بالعته ونعتي بالجنون..

تفهمتْ مقصدي وأدركتْ ما عانيته ووجيعة ما مررتُ به، وبختني بحسم تُصدق على حديث سابق:

ـ قلت لك الواقع حاجة تانية، ما بتسمعيش الكلام..

ـ بس ده كان حلم..

ـ الحلم ده هو الحقيقة اللي مش عاوزة تصدقيها..

ولوحت بكفها بغيظ:

ـ ديل الكلب يا ماما..

لويتُ أصابعي، وتهربتُ بناظري على أمل:

ـ ما هو خلاص صدقتك، مش عاوزاه عابث خالص..

رمقتني بحذر كأنما تتوقع أن ألقي على رأسها بقنبلة هي الأولى من نوعها:

ـ عاوزة القتم..

شهقتْ واتسعتْ عيناها، وضعتُ كفي على شفتيها أمنع سيل الألفاظ المتوقع، استجديتُها برجاء باكٍ:

ـ بليييز.. عشان خاطري يا ليلو، القتم البارد الروبوت ده.. زي الممثل إياه اللي قلت لك عليه.. بليييز..

رفعت يديها للسماء تتوسل الغوث أو تبتهل لله أن يخلصها مني، أيهما أقرب:

ـ أنتِ فاكرة ده هترتاحي معاه!.. أنتِ قلت بنفسك، روبوت.. مش بني آدم..

تشبثتُ بكفها بكلتا كفي:

ـ لا.. هيبقى حلو ومخلص، وهيفك معايا أنا وبس.. مالكيش دعوة أنتِ..

نهضت..

استعديتُ للمغادرة وأنا أنبهها بحزم آمر عجيب:

ـ هاروح عشان ورايا شغل البيت والغدا، بالليل ابعتي لي المشهد.. إوعي تتأخري..

تابعتني بقرار قاطع:

ـ بكرة بقى، هاراجع فصلي وأنزله النهاردة..

توقفتْ خطواتي بأسى عقبها وافقتها..

فغدًا على أية حال، لناظره قريب!..

***

انتهى يومي الممل..

بدأ بسؤاله التقليدي، الذي لا يسأم منه ولو لمرة:

"عاوزة حاجة وأنا راجع من الشغل!"..

جوابي بالنفي..

ثم ملاحقته بالمهمة الزوجية الروتينية:

"ماتنساش تاخد الزبالة وأنت نازل، البواب ما جاش إمبارح"..

أنهيتُ الفروض المنزلية مع "معاذ"..

لعبتُ قليلًا أنا و"كريم"..

حضرنا نشاطًا طلبوه منه بروضته ووضعتُ الاثنين بفراشيهما..

جلستُ أجاور زوجي بغياب، أتصفح هاتفي بينما هو يتابع مسرحية عتيقة توقفتْ عن إضحاكي قبل عشرة أعوام..

لكن للغرابة؛ هو لا يزال يقهقه ببهجة طفل!..

كنتُ أنتظر مشهدي القادم، مع أحد أبطالي المفضلين.. وبلغة دارجة محببة..

"القتم"..

ذاك الصلب، الجاف.. العملي للغاية، عديم المشاعر حتى لقاء بطلته التي تذيب صلابته في دفئها..

دقائق وتعالى رنين رسالة "الفيس بوك".. المشهد، لقد وصل..

استقمتُ أترك الأريكة بعجالة، حروفي تلتهم بعضها بعضًا:

ـ هانام أنا بقى، تعبانة من الصبح.. تصبح على خير..

ولم أنتظر رده..

حان موعدي مع بطل أحلامي ولا عزاء لسيادة الواقع القابع بأريحية أمام التلفاز، ينهش حبوب الذرة، يتجرع المشروب الغازي وبعده يتجشأ داخل أذني مباشرة..

الحلم سيداتي سادتي..

وليذهب ما عداه إلى متاهات المجهول..

الحاسة الثانية

اكسر لها ضلعًا، وإن لم ينبت لها أربعًا وعشرين بديلًا.. فلا بأس!..

**

"ياللي ظلمتوا الحب

وقلتوا وعدتوا عليه

قلتوا عليه مش عارف إيه!

العيب فيكم

يا في حبايبكم

أما الحب!

يا روحي عليه

يا روحي عليه"

يا رووووحي عليـــــــه..

صدح صوتها الجهوري بالكلمات الأخيرة، تتغنى مع كوكب الشرق في شرفة منزلها وقد أوشك الليل على منتصفه..

انتفضت هرة كانت تسير فوق سور قريب، تقوس ظهرها مع النعيق الذي تظنه الحمقاء طربًا.. وسقطت تجاه الأرض على قوائمها الأربعة كعادة القطط..

راقبتها هي ببسمة من نوعية الـ "هيهيهيهي".. ثم استدارت تعود لغرفتها، تتقلب في فراشها بيدها هاتفها، تدخل لحسابه على موقع "انستجرام"..

تتصفح صوره التي لا تخلو من رسميته المعتادة..

و... عقدة جبينه!..

تنهدت بحالمية، وسبابتها تمر فوق ملامحه الرجولية الخشنة، كان وسيمًا لحد كبير.. لكنه يتجاهل تلك الوسامة وكل ما يمكن أن يجذب الأنثى، يسير كرجل آلي.. يتحدث مثله، ينفعل مثله.. ولا يرى في محيطه أية تاء تأنيث قد تفتنه..

لكنها هي المفتونة به..

من هو!..

رب عملها بالطبع، وهي المساعدة المختلة التي وظفها في لحظة عدم اتزان..

"بيبرس لاشين"..

رجل الأعمال، الملياردير، يبدل بين خمس سيارات.. وبزاته جميعها تحمل تواقيع أشهر المصممين العالميين..

لا يهتم سوى بالعمل، و..

العمل..

والكثير من العمل..

علمت أنه خطب في مرة، لكنها كانت امرأة متطلبة.. تهوى التسوق وتريد السفر لكل مكان بصحبته.. فألقى لها محبسها بوجهها ورحل..

لم تقاوم طبع شفتيها فوق شاشة هاتفها، تزفر بحرارة وتهمس له قبل الغرق في نعاس سيتضمن حضوره بالتأكيد:

ـ آه لو تعرف بحبك قد إيه!..

في الصباح التالي كانت تجلس خلف مكتبها بحلة أنيقة عملية، لا تخفي أنوثتها وسحرها الشرقي بالكامل، لكنها بذات الوقت تمنحها مظهرًا أنيقًا كلاسيكيًا اشترطه عليها عند بدء عملها معه..

رأته يتقدم بخطواته الثابتة، لا يلقي بتحية أو حتى يرفع ناظريه إليها، يدلف لغرفته وهي تتبعه بثبات يشبهه، تحمل بريده وبعض الملفات الهامة الخاصة بصفقة اليوم..

تناوله الأوراق إثر استقراره بمقعده الضخم، يوقع بعضها.. يمتعض من أخرى.. يتصفح الملف المكدس، يتطلع لساعته.. وهي على وقفتها، لا ينظر إليها.. لا يراها..

تتململ، تجاهد لإثارة انتباهه، لفت نظره.. لكنه أعمى، أبكم، أصم..

لا يعلم ملامحها، لن يدرك صوتها لو لم تكُن أمامه بهيئتها المألوفة، ولا ينطق إلا بكلمات محدودة عبارة عن سلسلة من الأوامر الخاصة بالعمل..

تأففت بصوت مسموع قطب له، حرك وجهه ليرميها بتأمل قصير متسائل أربكها:

ـ حضرتك محتاج حاجة!.. كده الورق جاهز عشان ميعاد النهاردة مع عبد العزيز بيه..

عاد يدفن رأسه فيما بين يديه مجيبًا بنبرة باردة:

ـ اعملي حسابك هتكوني معايا، الميعاد ده مش في الشركة، وأنا أخدته من يوم راحته عشان ما فيش وقت، لازم نبتدي شغل في المشروع..

تراقص قلبها بين ضلوعها.. سيصطحبها معه!..

افتعلت اللامبالاة مع قليل من الاستفهام:

ـ ليه حضرتك!..

أنهى توقيعاته وأقفل ملفه:

ـ لأنه ميعاد غدا ومعاه المدام بتاعته، مش معقول هانشغل أنا وهو بكلام في الشغل وهي تقعد لوحدها، حاولي ترغي معاها في أي موضوع من مواضيعكم..

أصابتها دهشة مستغربة، هو يتحدث كأنما هما صديقتان:

ـ مواضيعنا!..

استقام يناظر الخارج عبر الجدار الزجاجي الضخم الذي يحتل واجهة الشركة:

ـ أيوة مواضيع الستات..

احمر وجهها، ضيقًا وغضبًا.. لقد منحها دور المهرج في اجتماع العمل الجاد، عليها أن تقوم بتسلية المرأة حتى ينتهي هو من دوره العظيم المهم..

زفرت باحتراق والتفتت تغادر.. أوقفها:

ـ اعملي لي قهوة..

قبل اعتراض منها أو محاولة التملص وإلقاء المهمة على كتفي أحد السعاة؛ أمرها بحزم:

ـ اعمليها بإيدك يا شام..

من حزمه الصارم استنتجت تلذذه بصنيعة يديها.. ابتسمت ببلاهة وهمهمت بجواب غامض لم يكترث لسماعه..

بعد ثلاث ساعات كانت تجاوره في سيارته التي يقودها سائقها متوسط العمر نحو المطعم المنشود..

يسبقها بالهبوط وتتبعه من الباب المجاور لها، يخطو للداخل، بصره يفتش عن الرجل حتى وجد طاولته، تقدم نحوهما وهي من ورائه بخطوة..

صافحه العجوز ببسمة تليق بشيبه الثلجي الملفت للنظر، بأناقة وكياسة ونظرة متحفظة ألقى بها إليها بينما تتساءل زوجته التي تشبهه لحد كبير، نبرتها أرستقراطية، وعينيها باشتين بذات التحفظ والترفع:

ـ مراتك زي القمر يا بيبرس بيه..

قبل أن تنفي كونها زوجته، أو أية علاقة رسمية تربط بينهما حتى وإن تمنتها.. طمحت لها أو حلمت بها، وضع هو كفه فوق ظهرها بشيء من حميمية جمدتها وابتسم بالمقابل، مجيبًا بتلقائية كأنما اعتاد ذاك التعليق وأَلِف الرد عليه:

ـ أنا راجل محظوظ..

تصلب جسدها غير مصدقة، لكن دفء كفه ولمستها يخبرها أن ما حدث للتو هو حقيقة، أدارت وجهها إليه فرمقها بنظرة لم تستوعبها محافظًا على ابتسامته التي تراها للمرة الأولى:

ـ شام مش بس مراتي، دي تميمة نجاحي..

غصت بكلماته، بثنائه.. كادت تفقد وعيها لولا أن دفعها لمقعد يجاوره واستقر قربها، بينما العجوز تتسع ابتسامته بإعجاب أبوي:

ـ عال عال يا بيبرس بيه.. كده أقدر أقول إن الشغل بيننا ممكن رغم إني بحب آخد يوم أجازتي من غير ضغوطات..

شاب نبرته اعتذار ضاعف من استنكارها، فهو رجل لا يعتذر:

ـ اعذرني يا عبد العزيز بيه، بس لو هنكمل الصفقة دي لازم نكون جاهزين بكرة بالكتير..

أومأ الرجل برأسه برصانة:

ـ فعلا.. تعرف!.. دايما عندي قناعة إن الراجل اللي يقدر يلتزم بعلاقة مع ست واحدة طول عمره بيكون قد المسؤولية..

مال عبر المائدة يرمقها بنظرة أبوية بها شيء من شقاوة شاب ثلاثيني لا يشبه عجوزها الآلي في شيء:

ـ راجل أقدر أعتمد عليه في البيزنس وأكون مطمن..

وافقه "بيبرس" بسلاسة تعجبت لها.. المُضرب عن الزواج والنساء والدنيا و"الكل كليلة" ما عدا العمل!..

بنهاية ساعتين كانت الصفقة قد تمت، أدت دورها المطلوب منها في مصادقة المرأة وتسليتها، وهما الاثنان مدعوان لحفل عشاء بمنزل الشريك الجديد عقب ستة أيام..

في السيارة جلست صامتة، مرتبكة، تقضم شفتيها، تفرك كفيها، تهز ساقها حتى أغلق حاسوبه وزم شفتيه بنبرة جافة:

ـ مش عارف أركز في الشغل..

ـ أنت إيه اللي قلته ده!..

رفع حاجبًا واحدًا كأنما ينبهها لحدتها في الحديث معه، لكنها لم تأبه لتنبيهه..

أعلنها زوجته أمامهم، تلك أمنية الأحلام المستحيلة!..

لكن يمكنها أن تتحول لفخ من طراز..

"عريس يا بوي"..

أزاح الحاسوب والتفت إليها بنصف جذعه، يستكثر عليها انتباهه الكامل:

ـ عبد العزيز النحاس راجل تقليدي بفكر جامد، ما بيحبش يدخل شغل إلا وهو دارس شريكه ومطمن حتى لو من ناحية الحياة الخاصة..

زمت فمها بحنق:

ـ بس دي كدبة، وسهل يكتشفها..

عقدت ذراعيها، تتراجع في مقعدها إلى جواره، تقطب حاجبيها وصوتها يحتد:

ـ ولو اكتشف إنك كدبت عليه، هيلغي الشراكة أكيد.. أنا مش مراتك..

مط هو شفتيه بيسر تام:

ـ بسيطة.. تبقي مراتي..

تفرقت أجفانها بنظرة أقرب للجنون:

ـ نعم!..

أحنى عنقه يقترب منها قليلًا، يمنحها عرض حلم العمر:

ـ تتجوزيني يا شام!..

ربما حان الآن موعد ضربةٍ فوق الرأس، أو كوبٍ من الماء المثلج فوق وجهها، حيث أنها على وشك فقدان الوعي..

***

"يا ربي.. عسل عسل عسل"..

كنتُ أسفل الغطاء، أقرأ وبخار أنفاسي يشوش شاشة هاتفي كل عشر ثوانٍ فأمسحه..

هذه المرة اخترتُ الرجل الصحيح..

هل سمعتم كيف ينطق اسمي!..

بثقل ولباقة وصوت رخيم، آسر..

هل رأيتم عقدة حاجبيه!..

"ترد الروح"..

ابتسامته باهظة الثمن، لا يمنح أحدهم إياها إلا بعسر..

"القتم"..

ذاك هو الحلم..

أرسلتُ لصديقتي العديد من قلوب.. تنوعت بين الأحمر والبنفسجي، بعض القبلات وشكرتُها بلهفة:

"سكر يا ليلو بجد، حبيته قوي"..

وصلتني رسالتها بعد لحظات:

"يا ريت بس تحلي عني بقى"..

أجبتُها بحالمية لا تليق بذاك الآلي لكنها تليق بي أنا بينما أحلق في سمائه:

"وأهون عليكِ!"..

نطقتُها بدلال أثار ريبتها:

"اشفي يارب"..

ذاك هو ردها السريع الذي ابتسمتُ له، قبل أن أعلق بالمزيد سمعتُ صوت باب الغرفة يُفتح، خطوات زوجي، ثم ثقل جسده يجاورني..

أغلقتُ الهاتف بعجالة، تركته ينزلق من يدي، وأغمضت عيني أدعي النوم..

إثر دقائق من الإدعاء غلبني بالفعل..

حينها ذهبتُ إليه!..

***

نحن نحلم عندما نتمنى..

أو نخاف..

وهي في هذه اللحظة، بينما تروح وتجئ، تقضم أظافرها وتحترق ذاتيًا كانت خائفة..

عرض زواج!..

بلا مقدمات، بلا تزيين، بلا بديهيات الفكرة..

بلا ذرة من رومانسية وذاك مفهوم، فهو رجل بلا مشاعر.. ماكينة عمل محترفة..

ارتمت فوق فراشها متعبة، أفكارها في حرب تشابُك بالأيدي والنبال والسهام، كل منهم تصارع الأخرى علَّها تنتصر..

هل توافق!..

ترفض!..

تهرب!..

تتمسك بالحلم!..

لا تدري لمَ الخوف يتملك منها، رُغم كون الأمنية قد سقطت كنجمة من السماء بغتة بين كفيها..

نعم تحبه، ونعم تثق أنه بالقرب سيسقط في هواها، وربما هو سقط بالفعل لكنه يخفي مشاعره خلف واجهة قطبية صلبة تليق بتروسه الحديدية..

انقلبت على ظهرها تتأمل السقف، تمسك خصلة من شعرها، تلفها حول سبابتها وتضغطها إلى ذقنها، تستعيد ذكرى طلبه..

كلماته، نظرته حينها، ذهولها المصدوم:

ـ تتجوزني أنا!..

نبرته لا تتغير وتيرتها، لا تعلو.. لا تنخفض، لا تتبدل فيها هفوة:

ـ ليه لأ!..

تراجعت قرب باب السيارة:

ـ أنا سكرتيرة حضرتك..

شبه ابتسامة خطت حضورًا فوق شفتيه:

ـ ده المانع يعني!..

اعتدل يشد جذعه، يعدد بذهنه فوائد الأمر كأنما يجري عملية حسابية بسيطة لا تحتاج للوغاريتمات أو ينقصها كسور:

ـ عبد العزيز بيه عرف فعلا إنك مراتي، في دعوة لينا في بيته خلال أيام وده بسببك على فكرة لأن مراته أعجبت

بيكِ، أنا ما كنتش بفكر في الجواز.. بس دي سنة الحياة، عشان على الأقل يكون عندي أولاد يكملوا من بعدي..

لم تلتقط من حديثه الجامد إلا بدايته:

ـ قصدك إني دبستك!..

ـ أنا ماقلتش كده..

وفرد كفه بنفي ضايقها أكثر، احتدت بسخط:

ـ على فكرة حضرتك اللي قلت إني مراتك، مش أنا..

عاد يسترخي في جلسته ببرود:

ـ عبد العزيز بيه راجل كلاسيكي وقديم، وزي ما شفتِ بنفسك.. فكرة إني أكون راجل متجوز قدامه إديتني نص ثقته مباشرة..

عاندت بكبرياء عاشقة تشتهي العشق:

ـ بس أنا مش مضطرة أتعامل على إني مراتك، ممكن نقبل الدعوة دي وخلاص بعدها..

تضاعفت عقدة جبينه بضيق ظاهر:

ـ إحنا هيكون بينا شراكة يا شام، يعني اللقاءات مستمرة بدون زمن محدد..

علا رنين هاتفه ليبتر الحديث الدائر بخبال بينهما..

تناوله يرمق شاشته بعدم رضى، ينهي الأمر معها باقتضاب:

ـ على العموم فكري، واحسبيها صح..

كادت تضربه على رأسه بشيء ما لم تعلم ما هو..

هي تفكر بقلبها وهو لا قلب له..

لكن لديه الكثير مما تحبه..

فربما لو اقتربت يذوب الجليد، وتذوب هي معه..

.....

لا تفرّطِ في حلمك حتى وإن بدا مستحيلًا، تشبث به مهما بعُد، واطمح إليه..

الطموح وحده بداية طريق الوصول..

الطموح هو ما جعلها تغيب عن العمل ليومين، ظهرت في ثالثهما.. استدعاها لمكتبه، وقف يواجهها بنظرة غامضة.. صمت بليغ أقلقها، أنهاه بحزمه الجليدي:

ـ أظن من ضمن العرض ماكانش تسيبي الشغل بدون إشعار مسبق!..

كادت تشهق بحنق..

ذلك الآلي المليء بالتروس والمسامير والحديد..

ألا يلين!..

شدت قامتها التي لا توازي قامته في شيء:

ـ كنت بفكر..

تجاهل جوابها وأصر على ما يريد:

ـ برده ده مالوش علاقة بالشغل..

تهدل كتفاها يأسًا:

ـ كنت محتاجة أبعد عنك..

تضاعفت تقطيبته بتساؤل أربكها، كيف تخبره أن قربه زلزال بقوة ألف ريختر يقلب عالمها رأسًا على عقب!..

يدمر ثباتها ويخل باتزانها، يرفعها لحدود السماء، ويسقطها فيضرب جسدها بالقاع الصخري..

يبنيها ويهدمها..

يحييها بجحيم العشق، ويميتها بصقيع الرفض..

لوت أصابعها وولته ظهرها بهروب خجول:

ـ عشان ما يبقاش قراري متأثر بأي عوامل خارجية!..

منطقت دفاعها بما يليق بأفكاره، صمت ينتظر التتمة وصمتت تترقب اهتمامه، سؤاله..

اقترب منها خطوتين، وقف قربها.. في ظهرها، لا يلامسها لكن حروفه كلها تتغلغل بجميع حواسها فتحرقها:

ـ إيه قرارك يا شام!..

استدارت إليه فوجدته قريبًا..

أقرب مما يجب، ومما يمكن أن يتحمل قلبها وحتى عينيها اللتين غرقتها بعشبية عينيه.. ابتسمت بتنهيدة خافتة شبه مختنقة:

ـ موافقة..

ستحلق مع الحلم، ستتعلق بأذياله حتى وإن سقطت بالنهاية..

ودقت عنقها!..

.....

الحلم هنا ليس له ذيل، بل عقد قران هادئ، ثوب زفاف أنيق.. دون ضوضاء أو أضواء راقصة تسبب له النفور وتثير أعصابه..

كانت تريد أن تجرب فرحة الفتيات، أن ترقص بين صديقاتها؛ لكنه بتر ذاك كله بقرار حاسم يراه منطقيًا:

ـ فرح إزاي يا شام!.. عبد العزيز بيه عارف إنك مراتي فعلا، لسه هنعمل فرح والخبر ينتشر في السوشيال ميديا وألاقيه عرف إني كدبت عليه!..

وافقته بلا جدال كثير..

هي لا تهتم بكل تلك التفاهات رُغم أن ليلة العمر تحتم تميز الذكرى وتفردها..

ستصنع ذكراها معه هو.. بين ذراعيه..

وصلا لمنزله الذي أباح لها تجديده بعجالة تبعًا لذوقها، على أن تترك له غرفة مكتبه وغرفة نوم منفصلة بألوانها الداكنة السابقة..

لم تفهم فيمَ يحتاج لغرفة بعيدًا عنها!.. لم تسأله، اكتفت بالموافقة وخلال ستة أيام ها هي ببيته.. معه.. بغرفة نوم واحدة وحمرة الخجل تكاد تقتلها مع فورة دمائها بعروقها وخوفها من ليلة كتلك..

تراجع ينزع سترته، يخبرها بنبرته التي لا تختل:

ـ هاغير برا.. خدي راحتك..

خرج من الغرفة!..

أين اللهفة!..

أين التوق!..

أين الاشتياق لعروسه!..

أصابها إحباط، تغافلت عنه وهي تبدل ثوبها.. تمسح زينتها وتستعيض عنها بأخرى ناعمة، تسدل خصلاتها التي تشبه ليل واحة خضراء..

حالك.. ببريق نجوم متوهج..

انتظرت حتى سمعته يطرق الباب، يفتحه.. يتأملها بنظرة ذكورية فطرية قرعت لها طبول قلبها..

يقترب..

يمتلك..

يبتعد..

وانتهت اللحظة..

.....

الزمان يطير، لا يمر وحسب..

عالم الأحلام بقواعده الخاصة التي لا يمكنها ليّها أو التمرد عليها..

أصبحت زوجته منذ عام!..

حياتها روتينية، باردة.. أجبرها على التخلي عن عملها معه، فكيف تعمل زوجته كمساعدة تحت إمرته!..

علمت لمَ استثنى إحدى غرف النوم..

كان يهجرها بها متى ما شعر بالضيق منها، وهو يتضايق إن نسيت كيف هي قهوته!..

حملت بعد ثلاثة أشهر من الزواج في توأميه، صبيين..

أميرين لمملكة "لاشين" مترامية الأطراف بين سوق التجارة والصناعة والبورصة..

يتعامل معها بجدية، يخبرها أن المشاعر لا قيمة لها جوار جودة العلاقة التي بُنيت بينهما على أساس سليم وأعمدة متينة..

اعترفت له بالحب ألف مرة..

وابتسم وهو يستقبل اعترافها ببساطة في كل مرة..

طلبت الاهتمام رُغم أن القاعدة تحتم أنه "مابيطلبش"..

ومنح بالقدر الذي يستطيعه، بالطريقة الوحيدة التي يجيدها.. هدايا، سيارة جديدة، منزل باسمها.. سفرة عمل اصطحبها معه خلالها..

قربه منها روتيني، لا يهملها.. ولا يسعدها بالقدر الكافي، تتمنى أن تشعر بلهفته..

بتوقه..

بشغفه..

وهو فقط آلة.. ماكينة محددة الغرض وأسباب التصنيع، أما هي فغارقة في دوامته التي لا تتوقف أو تنتهي..

وصلت بسلام لنهايات شهرها التاسع، كانت على موعد مع طبيبتها، من المفترض أن يكون قربها به.. وكبديل أرسل سيارته بسائقها ليقلها فهي لا يمكنها القيادة ببطنها المنتفخ حد الاختناق.. لم يأتِ..

ليلتها أخبرها أنه عاد للمنزل حال غيابها ليلتقط حقيبة ثيابه المحضرة دومًا على أهبة الاستعداد.. عاد وسافر، وسيغيب لثلاثة أيام!..

قد تلد خلالها لكن كما يبدو هو لا يبالي.. ما دام كل شيء قد سبق إعداده..

فعلتها يوم عودته، توجه من المطار إلى مقر شركته، هاتفها باقتضاب يطمئنها على وصوله لأرض الوطن.. وتلاشى..

خلال ساعتين بدأت أعراض ولادتها.. تعالت صرخاتها، بكت ألمًا وحزنًا وقهرًا..

تحبه وتريد الفراق لكن الرابط بينهما لم يعُد يباح أن ينقطع..

لم تتم ولادتها على خير، نقلت لغرفة العمليات لأجل إجراء ولادة قيصرية، عندما أفاقت من التخدير كان يدخل من باب الغرفة لتوه..

يهديها بسمة باهتة ويعتذر بقبلة جبين:

ـ آسف يا شام، اتأخرت عليكِ.. كان عندي اجتماع مهم بعد السفر ما ينفعش يتلغي أو يتأجل..

أغمضت عينيها، ابتلعت الهواء في استعداد للبتر، تنفسته بخشونة وأرادت ما تراه لها حقًا:

ـ طلقني يا بيبرس..

الأحلام ليست حقيقة..

والحقيقة إن اقتحمت أرض الحلم، لعمرك هي الكارثة!..

***

استيقظتُ بقلب مكسور.. بحزن، بوجه شاحب أثار اهتمام زوجي وقلقه، طمأنته وتعللتُ بصداع، ثم راسلتُ صديقتي التي ذبحتْ كل أمالي في المهد:

"ما بيحسش يا ليلو.. كسرني"..

لم ترسل إليَّ برد فوري، طالعتْ رسالتي وصمتتْ لساعتين قبل أن تهاتفني، تمصمص شفتيها كعادتها العجيبة، وتؤنبني:

ـ مش كنتِ عاوزة القتم، الروبوت.. أهو، اشربي..

نهرتُها بغيظ:

ـ على فكرة أنا حاسة إنك قاصدة تبوظي أحلامي..

أتتني دمدمتها غير الواضحة وإن كان الغضب ظاهرًا بحروفها:

ـ أنتِ هبلة يا بنتي!.. هو أنا اللي بانام وأحلم..

كابرتُ بحدة حانقة:

ـ أنتِ زرعتِ الأفكار الوحشة دي في دماغي، خليتِ عقلي يفكر فيها ويبوظ لي الحلم..

سمعتُها تضرب كفًا بكف، تهمهم بحزن، تذكر بلاهتي بين السطور وتلومني بلا توقف:

ـ لا يا حبيبتي، أنا لا زرعت ولا حصدت.. أنتِ عقلك الباطن مش راضي عن عمايلك السودا..

اكتنفني سكون..

وجوم..

أسى لحالي..

ماذا إن كنتُ أطمح لأكثر من رجل عادي!..

هو حلم..

خيال..

ورق..

أهذا كثير لينقذني من ابتلاع حياتي الفاترة لكامل طاقتي وكياني ومشاعري!..

استغربتْ صمتي، توجستْ له.. همستُ أخيرًا بمناشدة:

ـ عاوزة أكشن يا ليلو..

ـ أكشن إيه يا كبدة وممبار ليلو!..

ضحكتُ بخفوت وأنا أتعلق بطيبة قلبها وأتملق شغفها:

ـ القاسي..

ـ نعم يا عينيا!..

أخرستُها قبل أن تهديني وصلة من "الردح" الأصيل:

ـ القاسي المجنون بيَّ، اللي بيغير عليَّ من الهوا.. ويتجوزني غصب، ينام على الكنبة في الأول وأكون بكرهه، ولما أقرب منه ويقرب مني نحب بعض.. يتجوزني انتقام من بابا..

هذه المرة كما يبدو كانت تضرب رأسها ذاتها في قائم فراشها الخشبي:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل..

ـ عشان خاطري يا ليلو، وهاعملك المكرونة بالبشاميل..

همست بوله مباغت:

ـ شوف البت.. بتثبتني!..

ـ بحبك والله العظيم..

ـ يا مصلحجية..

عاتبتُها برقة منكسرة:

ـ انا برده!.. ده أنتِ حبيبتي من أيام الجيزة..

زفرتْ باستسلام قبل أن تغلق الخط:

ـ أمري لله..

أرأيتم كم أنا محظوظة بها!..

في انتظار حلم جديد..

تراه كيف يكون!..

***

أتى الليل..

يوم ممل كسابقيه، زوجي تأخر في عمله ثم أرسل لي عبر الواتس آب أنه سيمر على منزل والدته ليقضي معها بعض الوقت..

أعدتُ له رسالته وأضفتُ من عندي:

"ابقى هات عيش فينو وزبادي وأنت جاي"..

تقوقعتُ على الأريكة في الظلام، أتصفحُ حسابي وأنتظر..

لم يطُل انتظاري كثيرًا، "ليلاس" أرسلتْ لي مشهدي الجديد مع بطل آخر ممن أعشقهم..

ودَّعتُ خمولي وكسلي ووحدتي..

وذهبتُ إليه في أرضه..

الحاسة الثالثة

إن أردتَ شيئًا بقوة؛ خُذه.. لا تتردد، إياك أن تتركه لغيرك أبدًا!..

**

أحيانًا يصبح السقوط في الحب مسارًا إجباريًا..

تحاوطك الحياة من كل زاوية، يحاصرك الغرام.. يغزوك العشق، فلا تملك إلا التسليم للمعشوق..

لعاشق ظننته يومًا هو.. الشيطان!..

وربما في هذه اللحظة بالفعل كان..

يدور حول الرجل الستيني الخاضع قبالته بمذلة، يتفحصه بصرامة غامضة.. يثني طرف شفتيه بتلذذ..

يتشمم خوفه الذي يعبق الأجواء من حوله، هالته المشروخة وضعفه وهوانه..

لكنه يستحق..

مجرد سارق، وسيدفع الثمن بأغلى ما يملك!..

توقفت خطواته في مواجهته، شد قامته فبات كعملاق قاتم النظرة والملامح والكلمات:

ـ أنت عارف أنا ممكن أعمل فيك يا عم شرف!..

نطق اسمه بسخرية شديدة، كأنما يخبره أن المسمى به خالٍ من كل مبدأ أو أخلاق:

ـ هاسجنك وأسيبك تعفن وتموت في السجن..

اقتنص خطوة أخيرة نحوه، قبض بعدها على ياقته بيد واحدة:

ـ ما حدش يجرؤ يسرق من بيبرس لاشين..

ارتجف العجوز بوهن طال صوته وجسده كله:

ـ والله يا بيه ما حصل، أنا حتة موظف غلبان في الأرشيف، لا بتعامل مع فلوس ولا بنوك..

تلوت شفتا "بيبرس" ببسمة شرسة:

ـ المحاسب القانوني بلغني باللي عملته، إزاي اختلست من الرصيد بكميات بسيطة كل مرة عشان ما حدش يحس بيك..

أقسم له الرجل بأغلظ الأيمان وهو يكاد يبكي:

ـ يا بيه أحلف لك بإيه ما سرقت، حاشا لله أدخل بيتي مال حرام..

قهقه السيد المطاع بقلب المكان، قهقهته كان مجلجلة عالية تفيض بالاستهانة والغضب:

ـ أنت جاي تتوب هنا ولا إيه يا شرف!..

ـ يا بيه...

ـ ولا حرف زيادة وإلا هتبات الباقي من عمرك على البورش..

رفع العجوز عينيه إليه بأمل:

ـ يعني إيه يا بيه!..

صمت "بيبرس" لدقيقتين كاملتين، تركه خلالهما يشتعل.. يحترق.. يتحول لرماد..

عاد خلف مكتبه، جلس بشموخ ووضع شرطه الوحيد:

ـ هتدفع تمن اللي عملته وإلا هادفعهولك بأسوأ طريقة..

ارتعد الرجل بقلة حيلة:

ـ في إيدي إيه أعمله!..

ـ مقابل يا عم شرف..

استرخى في جلسته، يضع ساقًا فوق أخرى، يرمقه شذرًا:

ـ تمن سرقتك، أغلى حاجة عندك..

توسله بخضوع منكسر:

ـ لو أملك من الدنيا حاجة كنت اشتريت بيها كرامتي ولا إني أقف الوقفة دي قدامك يا بيه..

رماه بنظرة مبهمة وازت جمود نبرته:

ـ عندك.. ملكك..

ـ عندي إيه!..

ـ شام..

ـ بنتي!..

شهق بها العجوز بينما يرتد خطوتين إلى الخلف، يكاد يسقط فيستند بكفه لجدار، عيناه تدمعان وألمه يتعاظم:

ـ عاوز تاخد بنتي مقابل الفلوس اللي اتهتمني زور إني سرقتها!..

استقام رئيسه يغادر مقعده، يقترب.. يشرف عليه بنظرة كالجحيم:

ـ غلط.. بنتك، مقابل حياتك..

سطا على بصره وجميع حواسه بحضور مقبض:

ـ حياتك اللي ممكن أنهيها بإشارة من إيدي..

وطرقع بأصابعه بلامبالاة باردة أجفلته، استجداه العجوز بتوسل:

ـ أنا في عرضك يا بيه، بنتي ماليش غيرها في الدنيا، مالهاش ذنب.. أنا هاتسجن وهاتحمل...

ـ أنت هتموت!..

تضاعفت الرعدة بجسد "شرف" المتهاوي المتعب:

ـ يعني عاوزني أبيع بنتي جارية عشان أنقذ نفسي..

مط "بيبرس" شفتيه بلا اكتراث:

ـ جارية بعقد شرعي، أكيد مش هاعيش معاها في الحرام..

توسعت عينا الرجل بذهول مصدوم:

ـ عاوز تتجوزها!..

لم يجِب السؤال بل سأل في المقابل:

ـ قلت إيه!..

.....

"لأ"..

صرخت باكية، انهارت عند قدمي أبيها الجالس بوجوم على طرف فراشها، تعلقت به في حيرة، في شتات:

ـ يعني إيه أتجوزه وأنا ما أعرفش عنه حاجة غير اسمه!.. ودراستي وكليتي وشغلي وأحلامي!..

ربت والدها على خصلاتها بحنو يشي بضعفه وانكساره:

ـ هددني بالسجن والقتل يا شام، مش هاجبرك.. أنا مش مهم، المهم أنتِ..

رفعت إليه عينيها المبللتين بالعبرات، أهدت الأفق نظرة برية بشرود:

ـ ليه!.. ليه كل ده!..

أجابها بأسى بائس:

ـ اتهمني بالسرقة..

انتفضت من جلستها، نهضت بعنفوان واعترضت بحزم صارم غير مصدق:

ـ ده كداب ومجنون ومختل..

ـ ما تقوليش كده يا بنتي، مافيش في إيدي حاجة أعملها..

زمت فمها تعض كلتا شفتيها بين أسنانها حتى كادت تدميهما، همستها كانت لنفسها:

ـ بس أنا بقى في إيدي..

ثم بحماقة وغرور وطيش كانت أمامه بمكتبه في اليوم التالي!..

ترمق وسامة ملامحه الصلبة بحذر، نظرته السوداء، انعكاس ظلال من الخبث والدهاء فوق مقلتيه وابتسامته التي توحشت كالنار:

ـ يا ترى جاية تبلغيني موافقتك على الجواز!..

جابهته بعناد وكبرياء لا يهتز وإن كان كيانها كله يرتجف بخوف:

ـ لأ.. أنا مش موافقة أتجوزك..

خطا نحوها، تراجعت بتلقائية رسمت سخرية فوق تفاصيله كلها، ظلت تتراجع وهو يتقدم حتى حاصرها على جدار مكتبه، حط بذراعيه حولها فانكمشت على نفسها:

ـ متأكدة من قرارك ده!..

قبل جواب باتر منها أكمل بصرامة مخيفة أرعبتها:

ـ عارفة تبعاته!.. باباكِ الراجل الشريف قالك على التمن!..

كادت تبكي لكنها تماسكت..

أقسمت أنها لن تضعف أمامه، لن تهين دموعها بين يديه:

ـ ليه بتعمل كده!.. أنت متأكدة إن بابا ما سرقش..

زوى ما بين حاجبيه ورأسه تميل قرب عنقها ببطء:

ـ مين قال ما سرقش!.. أنا عندي الأدلة..

تباعدت لا تدري إلى أين تذهب.. هي على وشك الغوص في الحائط:

ـ ليه ما سجنتوش!.. ليه بتساومه!..

همس بأذنها وشفتيه تمسانها بحروفه:

ـ عشان عاوزِك في المقابل..

تعانقت أجفانها بفزع لا تدري ما تفعل، تراجع يتأملها.. جسدها الغض، ثيابها البسيطة، قدميها الصغيرتين في حذاء رياضي يليق بسروالها وقميصها الأسود الأشبه بثوب حداد..

وجهها..

عنقها الطويل..

نعومة بشرتها وشفتيها..

كان تقضمهما بتوتر وأجفانها المنغلقة تهديه كل الخيالات الممكنة والمستحيلة..

ابتسم بقسوة وأصابعه تقبض على إحدى خصلاتها الداكنة:

ـ جهزي نفسك لكتب الكتاب بكرة..

شهقت بذعر وهي تتملص من حصاره بعدما تباعد عنها:

ـ أنت أكيد مجنون، أنا مش هاتجوزك..

داهمها مجددًا، قاطعًا المسافة بينهما في خطوة واسعة، قبض على عنقها ويده تكبل رأسها.. همس عند شفتيها بأمر لا جدال بعده وعتمة نظرته تحيق بها:

ـ هتتجوزيني يا شام..

بعدها بدَّل وجهته لأذنها يزيد في الهمس الحارق:

ـ هتبقي مراتي..

لم تكن تعلم أن السرقة حقيقية، أن والدها مختلس لكنه لا يكترث للمال..

يكترث لها هي!..

منذ رآها بصحبته أمام مقر الشركة وقد عزم أن ينالها، حينها ألقى القدر بين يديه بطرف الخيط الذي لفه حول عنق أبيها.. وسحب بقوة..

يريدها هي..

يحبها هي!..

***

"هييييييح"..

"عليه نظرة قاتمة وعتمة مقلتين إنما إيه!"..

"يا خراشي عليه"..

ظللتُ أتمتمُ بالكلمات لنفسي..

يا سادة أي حلم أفضل من أن يحطم أحدهم كل قانون ويدهس كل مبدأً لينالك!..

لتصبح ملكه.. له..

يعشقك حد القسوة.. حد الخبال.. حد الجنون.. حد الاستحواذ التام!..

يكسر ويحطم ويتجبر ويتوحش لخاطر قربك!..

"هيييييييح"..

كررتُ تنهيدتي الحارة والخارجة من أعمق نقطة بصدري، راسلتُها برسالة مقتضبة لم أكن أنتظر بعدها استجابة.. لم أكن أريد:

"لما أشوفك هاهريكِ بوس يا ليلو يا بنت زوزو.. حبيته قوي"..

أتبعتُ رسالتي بـ " sticker" يأكل وجنتيها المكتنزتين بنهم وسِرتُ كالمنومة إلى غرفتي، يبدو أن زوجي العزيز سيقضي وقتًا أطول مع أمه..

وهذا يعني أن الحلم ينتظرني باكرًا هذه المرة..

أنا آتية بركض.. بلهاث.. بشغف ورغبة وفضول..

أنهيتُ روتيني، اطمأننتُ على صغيري، "كريم" المشاكس لا يترك دثارًا فوق جسده أبدًا.. أعدتُ محاوطته بغطائه، قبلتُ جبينه وعدتُ لغرفتي..

انزلقتُ بين طيات الفراش، أفكر.. أتخيل.. أتمنى.. وأحلم!..

***

"قبلتُ زواجها"..

نطقها بتسلط.. بتجبر..

بعنفوان عجيب أخافها وهي تواجهه في مقعد بينما يضم يد أبيها أمام مأذون شرعي ملَّكه منها للتو..

ترك مجلسه واقترب منها، أقامها عنوة لتواجهه، قبَّل جبينها بتلكؤ أغاظها، وحشر ببنصرها خاتمًا ماسيًا أبهر الحضور المحدود فانطلقت الزغاريد والتبريكات وعلت الأغاني ببيتها البسيط..

خلال أقل من نصف ساعة كانت تجاوره في سيارته الفخمة، يقود بها نحو منزله المقام وحيدًا فوق تلة عالية بأحد المدن الجديدة، بشموخ يعانق الليل..

تنفتح بواباته الكترونيًا وحراسه ينحنون تبجيلًا لأجل سيدهم..

أسرع أحد العاملين يحمل حقيبتها للطابق العلوي، أشار إليها لتتقدمه..

تعثرت في خطواتها على الدرج فكادت تنزلق لولا أن دعمها بذراعه، كان يطوقها.. وهي مرتمية فوق صدره بلهاث مرتعب..

أرادها وذاك القرب قاتل..

بعدها انفلتت بنفور تبعده عنها، ترمقه بغل وتكمل صعودها، تبعها ببسمة قاتمة تشبه كل بسماته، بسمة خارجة من قلب ظلام نفسه وأفكاره..

فتح باب الغرفة الخاصة بهما، تسمرت قدماها قبل عبوره، هتفت بشيء من حدة:

ـ أنا هانام معاك في أوضة واحدة!..

رفع حاجبًا متسليًا هازئًا:

ـ أُمال المفروض مراتي تنام فين!..

ـ أنا مش مراتك..

أغضبه نفيها لملكيته لها، سحبها يدفعها للداخل، يغلق الباب ويحاصرها فوقه:

ـ ما تخلينيش أثبت لك جوازنا بأسوأ طريقة يا شام..

عاندته بشموخها الذي يفتنه رُغم الضعف والحصار:

ـ هتأذيني أكتر من كده إزاي!..

غمغم ببسمة باردة:

ـ أنتِ لسه ما شُفتيش حاجة من حياتك تحت سقف بيتي..

وارتد للخلف..

قربها مهلك ولو ترك لقلبه ورغباته العنان لامتلكها على الفور..

أصرت على عنادها الطفولي:

ـ ممكن أفهم اتجوزتني ليه!..

ـ تخليص حق..

جاوبها بصوت جليدي أدمى قلبها، طرفت عيناها بدمعة محتها قبل الميلاد:

ـ على فكرة كان ممكن تاخد حقك بألف طريقة تانية غير إنك تحرمني حياتي ومستقبلي وأحلامي..

أوجعت فؤاده العاشق..

صمت لثوانٍ واجهها بنهايتها:

ـ ومين قال إني هامنعك تحققي أحلامك!..

بهتت ملامحها في ذهول:

ـ قصدك إيه!..

عاد يقترب.. يطوق..

يتنفس عطرها الناعم وأنامله تداعب نعومة وجنتها:

ـ يعني هتكملي دراستك وتتنجحي وتيجي تشتغلي معايا كمان..

ارتجفت بغير تصديق.. أليس وحشًا كما ظنت!..

ـ أنا مش فاهماك..

ابتسم لها بذرة من لطف لم تستوعبه بالمثل:

ـ سيبي الأيام تعرفك عليَّ يا شام..

وتركت للأيام مهمتها كما أراد..

.....

باتت زوجته منذ شهرين..

خلال ذلك الوقت المنصرم؛ لا تصدق أنه ذلك الجبار الذي اتهم والدها زورًا بالسرقة وتزوجها بالإجبار..

يتركها تنام بالفراش، ينام هو على أريكة قريبة.. يتابعها بعينيه في كل حركاتها وسكناتها، يحفظ تفاصيلها.. يتقرب منها..

يوصلها لجامعتها ويمر عليها فيعود معها للمنزل!..

لم يمسها، لم يؤذيها..

كان يناوشها بقرب بين حين وآخر..

بقبلة مسروقة..

خاطفة..

أو متملكة لا يحررها من أسرها إلا وقد أضاعت أنفاسها..

كانت تسقط..

ولا تريد السقوط!..

كيف تسقط في حب سجانها.. وحشها!..

لكن ألم تقع الجميلة في غرام أمير اللعنة!..

لمَ لا!..

اليوم هو آخر أيام امتحاناتها، أنهته براحة.. خلال أشهر ستصبح امرأة عاملة بشركاته كما وعدها، لكنها ستتدلل عليه قليلًا.. تتمنع وتتهرب وتتفلت منه، تتركه يركض لاهثًا خلف رغبته في إرضائها..

وقفت مع زميلتها تثرثران عن الأسئلة التي لم تكن سهلة، اقتحم وقفتهما شابين زميلين، أحدهما مرتبط بتلك الزميلة والآخر كان يحبها..

يحبها وتعلم وفكر قلبها في يوم ما أن يبادله الحب!..

اقترب يهنئها، يبتسم لها برقة عاتبة ويهمس باشتياق هو زاده فيما ما بقي من عمر:

ـ هتوحشيني..

ـ سامر من فضلك.. ما تنساش إني...

ـ متجوزة!..

نطقها ببؤس حزين يتأمل فرارها من قربه:

ـ كان المفروض تكوني مراتي أنا!..

أزاحت خصلة تائهة خلف أذنها، هربت ببصرها ونبرتها تخفت بألم:

ـ النصيب..

هاجمها بحدة موجوعة:

ـ النصيب ولا الفلوس والعربية الـBM واللبس اللي جاي مخصوص من باريس عشانك!..

امتقع وجهها مع اتهامه الظالم:

ـ إيه اللي بتقوله ده!..

تهدل كتفاه بقنوط:

ـ مش دي الحقيقة!..

كادت تنفي.. تنهره، بل تسبه وتمنعه الحديث، تخبره أن الأمر بدأ قهرًا ثم تحول لنبض خافق لايزال يحبو في دنيا غرام زوجها القاسي..

كادت ولم يمهلها الآتي من خلفها، لم يمنحها الفرصة.. ناداها بحزم صارم، استدارت إليه بشيء من هلع تغاضى عنه..

كانت ملامحه مظلمة، نظرته سوداء.. لغة جسده كلها تصرخ بالغضب البركاني المكبوت لكنه على وشك الثورة، وإحراق الأرض بمن عليها..

تبعته حتى السيارة، جاورته في صمت مثير للرعب..

لم ينطق بكلمة وهي احتارت حروفها..

تشتت وماتت على أطراف لسانها الملتصق بحلقها، خوفًا.. قلقًا وارتباكًا..

ورغبةً في تصحيح ما يمكن أن يكون قد تبادر لمسامعه وفهمه بطريقة خاطئة!..

ستعترف له بالحب وتنُهي الأمر..

فتحت فمها تناديه لكن السيارة توقفت، حينها اكتشفت أنهما قد وصلا المنزل، خرج يجرها من ورائه.. تعثرت مع خطواته الراكضة على الدرج.. يدفعها لغرفة النوم، ينفخ كثور في حلبة مصارعة.. ويهاجم..

يصفعها!..

ارتعبت وتراجعت بينما دموعها تقفز عبر أجفانها رُغمًا عنها:

ـ بيبرس!..

وجنتها تصرخ بالألم، كفها فوقها لا تصدق أنه فعلها:

ـ بتضربني ليه!..

ـ أنا هاكسر لك دماغك، ومش بس كده..

تفاجئت به ينزع سترته، يتبعها بقميصه يقترب منها بانقضاضة أرهبتها فركضت تتباعد عنه، جذب خصلاتها الطويلة يعيدها بين ذراعيه:

ـ بتستغفليني يا شام!.. وأنا اللي سايبك على راحتك!..

أسقطها فوق الفراش.. صرخت:

ـ أنا هادفعِك التمن..

كمم فمها الصارخ بكفه، لم يكترث لبكائها، لهمهماتها الصامتة التي تناشده الصبر والاستماع، لنظرة عينيها التي التمعت فيها مشاعرًا تعامى عنها:

ـ يا ترى لما آخد حقي، هالاقيني أول واحد ولا...

توسعت عيناها بصدمة، غير واعية لسواد نيته وأفكاره التي تحرقه في أتون الغيرة والعشق ورغبة الوصال..

كانت تتمنع عنه، تبعده.. يشاغب، يشاكس.. يتخلى عن طبيعته الوحشية، هي مَن أعادت سرد اللعنة عليه فأفاق مِن سباته..

ولعنته ستحل عليها بالمثل..

ظلت تبكي، تدفعه.. تتوسله بصوت مكتوم، تتهرب منه خاصة عندما استبدل كفه بشفتيه، يثبتها بقيد يديه الصلب، تستجديه:

- بيبرس عشان خاطري اسمعني.. ما تكسرنيش بالشكل ده..

لكنه لا يستمع..

لا يبالي..

سيكسرها ويدهس حطامها..

سيصِمها بملكيته، ويوشمها بحضوه:

ـ ما تخليش أول ذكرى بينا كده.. عشان خاطري..

قلبه لا يلين..

قسوته وجبروته، وعقلها الهاتف بذعر في خلفية المشهد الدامي:

"اغتصاب لأ.. اغتصاب لأ يا علي"..

لكنه فعلها..

تمم امتلاكها، دون رفق.. دون صبر، بكل عنف ممكن.. وبكل شغف مباح..

لم تفهمه!..

في لحظة يخضع لشيطانه..

وفي التالية يستسلم للعاشق المدفون بين ضلوعه..

يصفع ويقبل بتوق..

يلعنها ويعترف بالسقوط..

ينتقم ويدلل..

يهديها الخوف المُكلل بالحب..

انتهى المشهد بها منطوية كجنين خائف، جسدها مكدوم بكلا الأثرين..

وفؤادها نازف بوجع..

.....

في اليوم التالي ظل الحال كما هو عليه..

أعلن ندمه..

أسفه..

سبَّ غضبه وجنونه واستسلامه لوساوسه..

عنَّفها كونها أثارت غيرته..

صدح بالعشق:

ـ أنا بحبك يا شام..

ضم قبضتيه، شددهما بغلظة مزقت جلده:

ـ من أول مرة شفتِك فيها حبيتِك، كنت عاوز أقرب منك وما عرفتش إزاي..

ابتسم بألم يستعيد الذكرى:

ـ راقبتِك، عرفت عنك كل حاجة.. عرفت حتى بقصة الحب القديمة، فقدت الأمل إني مش هاقدر أكون معاكِ..

رمشت بوهن، توليه ظهرها.. تتجاهله وقلبها يهفو إليه رُغم الألم والحزن والخيبة:

ـ لحد ما حصل موضوع الاختلاس، ما كُنتش هاأذي والدك.. بس لقيت طريق يوصلني ليكِ، واستغليته..

انحنى قربها يربت على خصلاتها المهملة:

ـ بحق العشق كان لازم أستغله..

لم تستطع الحديث، لكن قلبها قال كل الكلمات الممكنة..

لامه، عاتبه، نهره على فعلته..

على أسوأ ذكرى لأول امتلاك..

اعترف بالغرام وتدلل في الجهر به..

تنائت عنه.. شهر، اثنين..

وكان هو يجاهد لاستعادتها، تعود له روحه بين يديها..

يدللها، يشاكسها، يثوب لمناوشاته اللطيفة التي استقبلتها بخجل حقيقي وبكل غضب مفتعل!..

حتى علمت بحملها لطفله..

بكت كثيرًا، اكتنفها بالغ الحزن.. أن يغرس نبتته في رحمها عنوة.. أخبرته بدموع، استقبلها بندم كبير..

بوعد بالتعويض، والتكفير عن أبشع آثامه في حقها..

مر عام، اثنان.. ثلاثة..

كانت تحيا معه بنعيمها الخاص..

وهو لا يدخر جهدًا في منحها الجنة..

لديهما طفل ملائكي، لديهما الحب والغرام والهوى..

لديها هو!..

.....

الأحلام تظل أحلامًا مهما تمسكنا بها وأردنا أن نبدلها بواقعنا الممل..

الأحلام حيزها واسع، لكنها تطوف في دائرة وعيك ولا وعيك..

تسجنك بين جدران الرغبة، الخوف.. والأمنيات..

تدفعك نحو متاهة الاستسلام للوهم، أو تخيفك.. فتجبرك على العودة لواقع نال منك النبذ!..

ثلاث سنوات..

السؤال: هل يدوم الحلم!..

يحبها نعم..

ويغار عليها بجنون.. ألف نعم..

غيرته خانقة، ملتبسة بالشك، وهي تتحملها لأنها تدرك مقدار غرامها بقلبه..

لكنها لم تتحمل رد فعله الليلة.. ولن تتحمل..

كانا في حفل سويًا، خاص بشركته ونجاحه في اقتناص صفقة هامة من أحد أكبر حيتان السوق، ارتدت ثوبًا انتقاه بنفسه.. العطر والحلي، حتى الحذاء..

يدللها وترتضي الدلال..

في الحفل راقصها عدة مرات حتى اشتكت له ببسمة ناعمة:

ـ كفاية يا بيبرس الناس كلها بتبص علينا..

ضمها لصدره يعلن الملكية والاستحواذ والعشق:

ـ ما تخلينيش أبوسك قدامهم كلهم دلوقت وأكمل المشهد الرومانسي بفعل فاضح..

شهقت وضربت كتفه بدلال جعله يحكم ذراعه حول خصرها، يهمس بأذنها متوعدًا:

ـ لما نروح البيت هاعاقبك..

تراجعت تغرق في عينيه، تغوص في النظرة الخضراء الداكنة:

ـ ما باخافش على فكرة، طول ما أنا معاك..

عادت تستقر بضمته، تشاغبه بخبث ماكر:

ـ ومستعدة لأي عقاب..

زفر بحرارة يهديها بها رد فعله على غنجها..

استمر الحفل لبعض الوقت، حادثت خلاله العديد من زوجات الحضور، حتى اقترب منها أحد شركائه!..

ابتسم لها وتوقف يثرثر معها عن العمل، عن آخر الصفقات..

النجاح والإنجاز، تبسمتْ له بكياسة وردتْ على حديثه باقتضاب قدر استطاعتها..

تعلم مقدار غيرته ولا تريد أن تشعلها..

لم تعلم أنها اشتعلتْ وفات الأوان، بل احتدمتْ حد السعير!..

في الطريق للمنزل ظل صامتًا، ذاك الصمت عاد بها لأعوام مضت.. حاولت جره للحديث فلم يستجب، لكن بغرفة النوم انفجر..

صفعتين متتاليتين..

زعيق..

جنون..

كانت تريد تهدئته، احتواء غضبه وعشقه..

ترغب في أن تخبره بعشقها المماثل والذي حجب كل رجال العالم عن ناظريها..

لكنه لم يتوقف، سبها، لعنها.. تكررت الصفعات حتى أنها بادلته السباب والصفع..

لم تستطع الصمت وقبول ما يفعله أو حتى التغاضي عنه باسم الحب..

وقتها قرر أن يزيد من جرعة أذاه..

حل حزام سرواله ومزقه فوق ظهرها!..

الخوف هو لجام السيطرة الذي يجبر كل الكائنات على الخضوع..

لذا عليها أن تخاف..

بل يجب أن ترتعب..

.....

انتفضتُ مذعورة من نومي!..

جسدي ينبض بألم عجيب كأنما تعرضتُ للضرب المبرح حقيقةً لا وهمًا..

تحسستُ نفسي، ظهري، ذراعي ووجهي، لهثتُ بفزع، اكتشفتُ أن دموعي تغرق وجهي والوسادة..

مسحتُها واستدرتُ أراقب النائم بهدوء إلى جواري..

ملامحه هادئة، أنفاسه منتظمة..

سكونه يهبني سكونًا..

دون أن أدري، انزلقتُ أتمسح فيه..

وبلا وعي فتح ذراعيه وضمني..

حينها عدتُ للنوم!..

.....

استيقظتُ في الصباح باكرًا عن المعتاد، تركت الغرفة لأوقظ طفلي.. أعددتُ له صندوق غذائه وأوصلتُه لحافلة مدرسته..

عندما صعدتُ لمنزلي وجدتُ زوجي وابني الأصغر يركضان خلف بعضهما البعض بمرح..

حتى أن "كريم" أسقط كوب الشاي البارد، الذي بلغ منتصفه وكنت أحاول الاستفاقة مع جرعة كافيين محدودة منه قبل ساعة..

يا إلهي..

بساطي السماوي الفاتح..

صرختُ به والصرخة موجهة لوالده كذلك:

ـ كريم..

هرولتُ أرفع الكوب، أحضر منشفة وأبللها بالماء والصابون لتنظيف تلك الجريمة الشنعاء، رفعتُ عيني للكبير:

ـ طيب هو طفل، اللي أنت بتهببه ده اسمه إيه!..

كان يستفزني بضحكاته، يهرش رأسه ويبرر مع جنون عيني:

ـ بنلعب يا شام، ما نقصدش..

كدتُ أبكي..

لا أدري أتلك الرغبة من تبعات حلمي، أم أنها واقعية!.. فقط تمتمتُ بيأس:

ـ السجادة باظت..

وجدتُه يعينني على الوقوف، يربت على كتفي ويبتسم:

ـ نوديها المغسلة، دول شوية شاي..

لم أتحمل، أردتُ إعلان الغضب وربما فرض سلطة لا داعي لها نتيجة الانكسار في حلم، هتفتُ في وجهه محتدة:

ـ شوية شاي!.. الشاي ما بيطلعش، وعلى ما نشيلها وتروح المغسلة بيومك اللي بسنة ده هتكون باظت خلاص..

ثم دُرتُ حوله بنية رحيل غير آبهة ببهوت ملامحه وحنق عينيه المندهشتين، أوقفني بحدة مماثلة:

ـ شام..

تجمدتْ خطواتي لكنني لم أكترث باستدارة، وهو لم ينتظر رؤية عيني المنطفئتين:

ـ أنتِ مالك على الصبح!.. اصطبحي وعدي يومك على خير..

تجاهلتُ كلماته وتوجهتُ للمطبخ ببرود:

ـ مش مهم، أتفلق أنا عادي.. يلا عشان تلحق تفطر وتنزل شغلك..

قلتُها كأنني أريد التخلص منه ومن وجوده بالبيت، باغتني بخطواته التي خالفت وجهتي، نحو غرفة النوم:

ـ ماليش نفس..

دقائق قصيرة، كان قد بدَّل ثيابه وغادر..

دون إفطاره، دون عصيره.. وقهوته التي يحملها بالكوب المخصص للسيارة..

أنا امرأة سيئة..

لكنني حزينة، أتألم..

وهو ككل رجل، لا يرى أبعد من أنفه.. لا يفهم دواخل امرأته.. لا يستوعب جنونها أو فتورها..

أوصلتُ ابني للروضة، مررتُ بالسوق، ابتعتُ احتياجات غذاء اليوم والذي ما زلتُ به على وعدي لصديقتي،

المكرونة بصلصلة البشاميل الشهية، وقالب فرن كامل خاص، لها وحدها..

عندما عدتُ للمنزل وجدتُها جالسة على الدرج بانتظاري، ابتسمتُ لها دون أن تصل البسمة لعيني، وهي أدركت..

أرأيتم!..

نحن النساء نفهم بعضنا بعضًا دون الحاجة لشروحات أو ثرثرة فارغة عن حطام نفوسنا..

فطنتْ لخطب ما ألمَّ بي، سحبتني لمنزلي وأغلقت الباب، أجلستني على أريكتي المفضلة..

جاورتني بشك:

ـ شكلك مش طبيعي، مالك!..

تقوستْ شفتاي بأسى لحالي، لحال أوهامي وأحلامي، أردفتْ تضيق عينيها:

ـ أنتِ حلمتِ تاني!..

أومأتُ برأسي صامتة، بعدها انفجرت بالبكاء فجأة مما وتَّرها، ضمتني بلين تربت على كتفي، تهدهد دموعي بلا فهم حتى هدأتْ أنفاسي قليلًا فتمتمتُ في صدرها:

ـ ضربني وجلدني بالحزام يا ليلو..

استشعرتُ جهادها للتماسك، لمنع لسانها من توجيه السباب لي، لأفكاري.. لعبراتي المسكوبة على وهم!..

لكنها لم تكن تشعر بما أشعر به..

لم تمر بما مررتُ بظلاله السوداء التي تركتْ أثرها بروحي، وإن كان مجرد ثوانٍ محدودة في حلم مسروق..

الأثر باقٍ حتى في صحوي..

سمعتُها تتنهد، تبعدني وترمقني بقنوط:

ـ تاني يا ذكي!..

صمتتْ لهنيهة صححتْ بإثرها تعليقها:

ـ لا تاني إيه!.. ده تالت كده..

مسحتُ وجهي بمحرمة، رمشتُ لها بوهن:

ـ القاسي طلع وحش قوي..

مصمصتْ شفتيها كعادتها:

ـ ما هو قاسي، متوقعة إيه!..

همستُ لها بخجل، فأفكاري الفاضحة سيئة بما يكفي:

ـ اغتصبني..

تيبستْ تنظر إليَّ بذهول قبل أن تنفجر في فقاعة من الضحك..

لم تتوقف حتى ضربتُها عدة مرات ولعنتُها وعضضتُ يدها.. صرختْ بأنين:

ـ يا بنت العضاضة..

ـ عشان تتلمي، وتبطلي تضحكي عليَّ..

وجدُتها تعود لضحكاتها وإن كبتتها بعض الشيء:

ـ وأخبار الاغتصاب إيه يا فوزية!..

لكمتُ ساقها القريبة مني:

ـ اتلمي أحسن لك..

همهمتْ من بين أنفاسها المختنقة بالقهقهة:

ـ الله.. وأنا مالي طيب!..

تبدلتْ ملامحها لجدية، اعتدلتْ في جلستها وزفرتْ تقر بحقيقة لا أحبذها:

ـ عرفتِ قيمة جوزك بقى!..

ابتسمتُ بحزن وأنا أتذكر ما جرى صباحًا:

ـ اسكتي، صحيت متنرفزة ومتعصبة وزعلته، نزل من غير فطار..

لامتني موبخة بصراحة:

ـ والله أنتِ ما عندِك دم..

ـ يوووه بقى..

تركتُ مكاني واستقمتُ لتحضير قدحين من الشاي كعادتنا، أو كهروب مناسب من ندمي وضميري الذي يضايقني منذ ما حدث.. لكنها هي من لم تتركني، تبعتني.. وقفت تجاورني، تخبرني بمنطق مقبول للغاية:

ـ على فكرة اللي بيحصل في أحلامك ده دليل على حاجة واحدة!..

ابتسمتُ لها باستهانة وأنا أضع السكر في الأكواب، هي تعشقه كثيرًا وأنا أستخدم منه ذرة..

أفضل المذاق المر، على عكس زوجي هو الآخر..

نقطة خلاف تضاف لرصيد تبايننا وتضادنا!..

أكملتْ بلا اهتمام لرد فعلي:

ـ عقلك الباطن مقتنع وراضي بحياتك وبيتك وجوزك ولادك؛ فبيبوظ لِك أحلامِك..

طرقتْ رأسي برفق متضايق:

ـ لكن عقلك الواعي عاوز ضرب القباقيب..

على ذكر القباقيب تمتمتُ لها، أثير حنقها أكثر وأنا أحمل كوبي عائدة للخارج:

ـ خدي الأمور بسلاسة يا شجرة الدُر..

دمدمتْ بشيء مجهول على الأرجح كان سبابًا لا يليق، عدنا فوق نفس الأريكة وأنا أتناسى حلمي الأخير مقبلة بحماس على فكرة مختلفة:

ـ هو كان اختيار غلط أصلا، قاسي إيه بس اللي هيلين على إيديا!..

تأملتني بشك، لا تصدق أنني بِتُّ قنوعةً راضيةً، وفي الواقع لم أكُن.. أنا أحضرها فقط لطلب جديد!..

ناوشتها بمكر مرح:

ـ أنا عاوزة الـ...

ـ لااااااااأ..

صرختها نفضتني حتى كاد القدح ينسكب من يدي، هدأتُ من روعها وأعلنتُ عن رشوتي بلا تأخير:

ـ هاعملك سينابون..

صمتتْ ترمقني بقهر حقيقي:

ـ أنت بتضغطي على نقطة ضعفي صح!..

ابتسمتُ لها بشقاوة:

ـ السينابون نقطة ضعفنا كلنا..

قرصتْ ذراعي فتأوهتُ أُدلك موضع أصابعها بجبين معقود:

ـ عاوزة مين المرة دي يا آخرة صبري!..

رفرفتُ بأهدابي ورققتُ نبرتي وأنا أهمس لها بدلال:

ـ السايكو!..

لم تنطق بحرف..

ظلتْ تتأملني لدقيقتين كاملتين بسكون واجم كأنما تراقب مختلًا من خلف زجاج حماية..

بنهاية الدقيقتين ضربت كفًا بكف:

ـ أنتِ مستوعبة اللي أنتِ بتقوليه!..

أومأتُ لها بحماس متجاهلة برودها وغيظها الظاهر، الذي تضاعف مع هزة رأسي فاستطردتْ بصوت حانق:

- يعني أنت عاوزة تجربي الحب مع كل مختلين الروايات!.. أنتِ مخك ضرب بجد..

منعتُها مبررة رغباتي الجنونية:

- فين المختلين يا بنتي!.. هو بس القاسي كان عنيف حبتين، بس برده كان مهووس بيَّ وبيغير عليَّ..

"هيييييح"..

تنهيدة أفكاري الحالمة التي لم أُصرح بها احتياطيًا حتى لا أنال لكمة بمعدتي أو ماشابه، عقدتْ ذراعيها تتطلع إليّ باستنكار:

- فعلا!.. وبالنسبة للسايكو!.. ده إيه إن شاء الله!..

شردتُ في خيالاتي الحالمة، أستعيد تفاصيل أقربهم لقلبي بكل رواية قرأتها:

ـ ماله!.. زي القمر، ذكي ووسيم، غامض وتقيل وعليه هيبة تخبل..

"هييييييح تاني"..

أفكاري البلهاء تصدق على كلماتي، بين جنبات صمت عقلي، اللامبالي بأفعالي الشنعاء من وجهة نظره..

ضميري قابع في ركن قصي بإحباط خائب..

وقلبي ينتفضُ لهفةً للتجربة..

لم تتغير انفعالاتها إلا لجدية أكبر، تنطق بصدق:

ـ شام.. السايكو مش كده، دي مجرد واجهة..

ـ اكتبيه بس ومالكيش دعوة..

عاندتني بضيق فعلي:

ـ ولما يأذيكِ بجد هتعملي إيه!..

قطبتُ أنهرها ولو كان الحديث عن وهم:

ـ مين قال إنه مؤذي!..

عضتْ شفتيها بغيظ:

ـ هي كلمة سايكو ما بتلفتش نظرك لحاجة!..

تأملتُها بحيرة صادقة، حيث يبدو أن عقلي المحدود لا يستوعب مقصدها، أكملتْ بذات اللهجة المغتاظة:

ـ لها كذا تفسير يا بنتي منهم إنه مريض ذهان، يعني مرض عقلي.. تخيلي!..

سكنتْ تفكر لثوانٍ بينما أراقبها بحذر كأنما ستقفز بوجهي كهِرة مصابة بسعار الكلاب:

ـ التفسير التاني إنه اختصار سايكوباث، وده مرض نفسي يا ماما، المريض بيه معادي للمجتمع، أبسط حاجة ما بيعرفش يحب، مؤذي ومش ممكن يحس بالذنب وطبعا ما عندوش بربع جنيه ضمير.. افتحي جوجل واكتبي فيها سايكوباث يا حبيبتي، شوفي بيهبب إيه!..

عاندتُها دون إنصات لمنطق أرفضه:

ـ أنتِ مملة على فكرة، اكتبي اللي باقولك عليه..

هزتْ رأسها بإحباط:

ـ والله أنتِ جوزك خسارة فيكِ..

تغافلتُ عن توبيخها المعتاد، نهضتُ أمنحها رشوتها وأذلل العقبات في طريقي لعقلها:

ـ هاقوم أجهز للمكرونة، وأعمل عجينة السينابون.. أرجع ألاقيكي كتبتِ المشهد..

كان أمرًا..

أو رجاءً..

لا يهم، ما يهم أنني على وشك الحصول على تجربة جديدة، فريدة من نوعها..

ومثيرة للفضول!..

الحاسة الرابعة

في الحب والحياة، لا تتوقف أمام حدود أو تمتنع عند مواجهة حواجز..

حطم كل شيء، اهدم كل سد.. ونِل ما تشتهي..

في الحب والحياة؛ الجنون قانون..

**

كان فنانًا خاصًا، متفردًا.. راقيًا وأنيقًا..

يدهشها ما يقوم به، تظل تتأمله لساعات عبر الصور، حتى علمت أنه في زيارة للعاصمة بعد يومين..

حينها قررت أنها ستراه وجهًا لوجه..

ستذهب لمعرضه الخاص فربما تتعثر به، تقابله.. تراه واقعًا بعدما تشبعتْ بملامحه في الصور، وبفنونه المختلفة..

في الوقت الموعود، تحضرتْ.. ارتدتْ ثوبًا أنيقًا يليق بصحفية مهتمة بالفن عامة، وبه على وجه التحديد، قادتْ سيارتها الصغيرة لمعرضه المقام على شرف زيارته، وعندما دخلتْ للمكان وقع بصرها عليه..

انتفض قلبها بين ضلوعها..

كان أكثر وسامة من صوره وإن بدا كذلك أكثر نحافة، ممشوق القوام، بخصلات ناعمة طويلة إلى حد ما.. عيناه العشبيتان ثقيلتا النظرة، عميقتا الأثر.. ولوحاته المميزة تحتل الصدارة فوق أرضية صالة العرض..

تابعَتْها تتقرب بخطواتها منه، تتأملها باهتمام، تختطف نحوه نظرة بين كل فينة وتالية..

توقفتْ عند واحدة، تفحصتها بتدقيق..

كانت تبدو كما لو أنها لمجموعة من النساء تحملن أثقالًا، وأطفالًا على أكتافهن، في الصف القصير رجلين.. وطفل واحد على الأرض يتشبث بإحداهن..

اللوحة كانت توحي بالألم، بالصبر، برغبة الاستمرار والكفاح لأجله رُغم المشقة والصعوبات.. ارتسمت بسمة خافتة فوق شفتيها مع وصولها لتلك النقطة بأفكارها وشرودها عنه..

"عجبتِك!"..

انتفضتْ مع الهمسة القريبة من أذنها، تراجعتْ خطوة ترمق الواقف إلى جوارها برهبة تلاشت على الفور عندما سقطت بوسط مقلتيه المتوهجتين بذكاء حاد..

أهداها بسمة هادئة:

ـ آسف، ما قصدتش أفاجئك..

نفتْ بحركة صامتة من رأسها، فعاد يتأمل اللوحة بتفكير مهتم:

ـ كنت عاوز أعرف رأيك!..

تحشرج صوتها فخرج مشتتًا:

ـ حلوة قوي، لمست قلبي..

رفع أحد حاجبيه بأناقة:

ـ جميل إن لوحة من الحجارة تلمس القلب..

غمغمت بشرود حالم:

ـ كل لوحاتك تلمس القلب..

صمتَ دون رد، وهي انتبهت لتعليقها فالتفتت إليه بوجه محمر فتن بصره للحظة:

ـ حضرتك عبقري في الرسم بالحجارة.. بتقدر تخلق حياة جوا اللوحة، مشاعر وأحاسيس وأفكار..

انثنى طرف فمه مستمتعًا بمديحها:

ـ وإيه كمان!..

ارتددتْ خطوة ثانية، تعيد شعرها خلف ظهرها، تعض شفتها السفلى فيتابع حركتها بنظرة مبهمة رمشتْ لها بارتباك:

ـ بس..

وهزت كتفيها بخجل، دنا منها خطوة واحدة:

ـ على فكرة رأيك يهمني جدا..

طرفتْ بأهدابها وارتباكها يتزايد لحد مخيف:

ـ عين بتبص بفطرتها ومشاعرها وقلبها، برا إطار الفن الاحترافي المتقن..

خطوته التالية قربته منها لحد خطير:

ـ عين ناقصها خبرة عملية وعلمية، بس كلها إحساس..

أخفضتْ ناظريها بحياء هارب، تباعدتْ ثلاث خطوات توجهت إلى لوحة أخرى ترمقها بتفحص مشتت وقد شوشها قربه، حديثه.. وحلمها الذي تحقق:

ـ دي حسيت فيها ببهجة طفلة، حتى الألوان فيها روح مختلفة.. في ركن خاص، مرجيحة وعالم بعيد عن كل البشر.. ورد وزرع جذع شجرة..

همهم خلفها بتعجب وصلها واضحًا:

ـ مبهرة..

تصلب جسدها تمامًا، لقد حركت أنفاسه خصلاتها، استأنفتْ فرارها منه كغزال صغير:

ـ الغريب إنها مختلفة عن الموود العام للوحاتك..

ـ إزاي!..

اكتنفها خجلها حد الغرق:

ـ فيها براءة!..

ابتسم بهدوء ودار حولها يواجهها:

ـ يمكن لأن ملهمتها كانت مختلفة.. فيها براءة!..

كرر كلماتها مثيرًا فضولها، تعانقتْ أجفانها برجفة مع نظرته التي جذبتها نحو القاع المبهم، قاع مخيف لكنك لا تقاوم السباحة إليه بإرادتك الحرة..

أو ربما كنتَ مُسيرًا دون أن تدري، رجفة امتدتْ لجسدها كله مع استطرادته:

ـ بعد المعرض ما ينتهي، هنتعشى سوا.. ما تمشيش..

أمرها ببساطة ورحل..

يتجول في معرضه، بين لوحاته، يخاطب معجبيه ومحبي فنه.. يرميها من بعيد بنظرات مخطوفة كبَّلتها إليه، يهديها بسمات غامضة المغزى..

يدور حول عقلها ويأسره أكثر..

يبتعد ويقترب دون كلمة واحدة زائدة..

في ختام الليلة، أشار إليها لتتقدمه معلقًا بغرور:

ـ نجحتِ في أول اختبار..

كان يقصد الطاعة!..

لم تفهم فتسائلت بعينيها، وهو اختار ألا يمنحها الجواب..

اكتفى بسؤال يخصه:

ـ ماعرفتش اسمِك!..

تبعثرت حروفها فمررتها متطايرة بنعومة:

ـ شام..

ابتسم باتساع، دار بالسيارة مقتربًا من مطعمه المفضل:

ـ طبعا أنتِ عارفة اسمي..

ابتسمتْ بحياء، نظرتْ خارج النافذة إلى المكان الأنيق الفخم:

ـ طبعا..

بالداخل استقرا على طاولة في ركن هادئ، انتقى لها طعامها على ذوقه مبررًا بأنه يعرف المكان رُغم كونه غريبًا عن المدينة..

كان شهيًا تلذذت بكل قضمة منه..

حين تلذذ هو بارتباكها في حضرته، وتحت تأثير حضوره الطاغي الذي يدركه بثقة..

تحدثا في الكثير من الأمور، أو هو تحدث.. كانت تضم قبضتها أسفل ذقنها، تتطلع إليه بهيام تام وهو يتمعن في مخارج حروفه برقي، يسقيها قناعاته ومبادئه..

يتنقل من موضوع لآخر بسلاسة تامة وثقافة مذهلة..

يرميها بنظرات غامضة.. متفرقة تحيرها، وينبض لها خافقها..

يتابع هيامها وغيابها فيه بعنجهية خالصة، ثم يكمل حديثه كأنما لم يرَ شيئًا ولا يكترث بالرؤية..

في نهاية الليلة أوصلها لمنزلها، ودعها ولم تكُن ترغب في وداعه، أخذ منها وعدًا بالعودة خلال الأيام التالية، بلقاء بذات المكان..

أوفتْ بالوعد.. حافظتْ عليه، وكلما اقتربتْ أكثر كلما سقطت في غرامه أكثر فأكثر، شيء غير واضح، مشوش..

يجذبها إليه، كفراشة تدرك أن اللهب حارق، مميت.. وفقط لا تقاوم الاقتراب، كل ما فيها يدفعها نحوه.. يشدها لشراراته المتطايرة..

تتبعها حتى تصل لمصدر النيران..

وهناك تحترق!..

تركت قلمها من يدها فوق الأوراق، أغلقت المسجل الصغير بينهما، رُغم انبهارها به، بقربه.. لم تنسَ عملها وشغفها الأول، فقد أجرتْ معه لقاءً صحفيًا دسمًا ومثمرًا، ابتسمت بتردد:

ـ حوار ممتع..

أومأ لها بإيجاب يُصدق على رأيها، توترتْ قبل أن تسأله بأمل:

ـ هنتقابل تاني!..

أهداها بسمة مماثلة وإن كانت خاصته ثابتة، واثقة:

ـ عندي اقتراح..

تعلقت عيناها به، صمت يطهو مشاعرها وأفكارها على مهل قبل أن يهمس به بنبرة ساحرة كمشعوذ تحالف مع كل شياطين الجحيم لينال ما يتمنى مهما كان:

ـ تعالي لي اسكندرية..

قطبت بغير استيعاب، مرره ومد يده يداعب كفها المرتاحة على الطاولة بلمسات شبه محسوسة، ارتعشت لها دقاتها المرتبكة في حضوره:

ـ محتاج إلهام لفكرتي الجديدة..

واحتل مقلتيها بنظرة كقاع بحر:

ـ عاوزِك أنتِ..

قاع لن تملك معه سوى الغرق!..

***

قرأتُ المشهد وحرفيًا كانت القلوب تتقافز من بين أجفاني شبه المنغلقة بنظرة ناعسة..

أرأيتم كيف هو رائع!..

غامض..

مثير للاستكشاف والتتبع..

وتأتي صديقتي عدوة البهجة لتخبرني أنه مؤذٍ، لا أعلم كيف تفكر!..

لكنني أشعر بالرضى..

مع هذا الرجل لن أنحشر في نطاق المشاعر والحب وحسب، سيكون بيننا أحاديث أنيقة، مواضيع شيقة..

نقاشات تتحاور خلالها العقول لا القلوب فقط..

أخبرتني بفتور بعدما سلمتني المشهد لأقرأه أنها تخلي مسؤوليتها، وعندما نهرتُها متهمة إياها بأنها مجرد "بومة" عاشقة للنكد.. أن الرجل لطيف، ذكي.. وفنان..

قتلت سعادتي في المهد لتنبئني بأن تلك هي واجهة كل شخص يتصف بالسايكوباثية..

لن تراه يطوف الشوارع بسكين، أو يطلق النار على الكلاب الصغيرة لأجل التسلية..

هو جذاب.. ساحر.. فاتن.. على قدر ليس بالهين من الذكاء، والوسامة كذلك..

لم أكترث لحديثها كثيرًا فأنا أنتظر حلمي معه على أحر من الجمر..

رحلتْ هي محملة بما لذ وطاب من رشوتي المقدمة لمعاليها، وانتظرتُ أنا زوجي حتى عاد من العمل..

كان صامتًا، ملامحه منغلقة.. تناول غذائه وقرر أن يشاهد أحد المباريات على التلفاز بغرفة النوم تاركًا الآخر بالمعيشة للطفلين..

لا يزال غاضبًا، لكنني سأطيب خاطره بعدها أطير لحلمي..

جنَّ الليل، أودعتُ صغيريّ بفراشيهما، أنهيتُ أعمال المطبخ.. وحضرتُ له قطعتي "السينابون".. جوار قدح من الشاي المنكه بالقرنفل، وضعتهما أمامه على الطاولة المنخفضة.. ابتسمتُ له وهمستُ برقة:

ـ أنت زعلان مني!..

أهداني نظرة باهتة أُدرك أني أستحقها، تماسكتُ قدر استطاعتي فأنا شخص لا يجيد الاعتذار كثيرًا:

ـ أنا الصبح كنت متضايقة بسبب كابوس..

يبدو أن دافعي قد لفت انتباهه، انعقد حاجبيه ولأول مرة أنتبه لتلك العقدة التي منحت طلته هيبة لم أعتدها:

ـ كنت صاحية متعصبة عشان ما نمتش كويس بس..

لمحتُه يتردد للحظة، تنفرج حنايا وجهه بعض الشيء، يدير بصره إليَّ ويسألني باهتمام أسعدني:

ـ كابوس إيه!..

رباه..

كأنني سأخبره، فركتُ أصابعي ودفعت بالطبق بين يديه:

ـ مش المفروض أحكيه على فكرة، بيقولوا الحلم الوحش لو حكيته بيتحقق..

أطعمتُه قطعة من حلواي التي أعلم أنه يحبها من صنع يدي:

ـ المهم ما تزعلش..

ابتسم لي برفق، ربت على كفي قبل أن يزدرد قضمته، أحاطها بكلتا يديه بعد إعادته لطبقه فوق المنضدة، رفعها لشفتيه يطبع على ظاهرها قبلة دفئها مسَّ مشاعري:

ـ تسلم إيدك..

رفرفتُ له بأهدابي فوجدتُه يقترب..

لا..

نيته بعينيه واضحة، قوانين المصالحة الزوجية الأزلية!..

انتفضتُ أقف حتى أنه عقد حاجبيه للمرة الثانية وإن شاب نظرته دهشة، تراجعتُ أعتذر، أتعللُ بدافع سبق وقدمته:

ـ معلش يا حبيبي، أنا فعلا تعبانة وما نمتش إمبارح كويس.. تصبح على خير..

ثم ركضتُ إلى الفراش مخلفة من ورائي استنكاره..

ركضتُ إلى الحلم..

***

للحلم هيبته، قوانينه وقواعده..

للحلم طقوسه المحددة من قِبل الدواخل المختبئة عن أعين الوعي..

الحلم فضاء شاسع، مترامي الأطراف، مبهم المعالم، مجهول النهايات..

ولأنه حلم، يمكننا أن نحقق فيه كل الأمنيات!..

ادعتْ مهمة عمل، تستدعي سفرها للأسكندرية، ستقيم أسبوعًا واحدًا، حتى تنتهي منها..

وافق والدها الذي يشجعها على التقدم بعملها، وتبرمت أمها بعض الشيء وإن لم ترفض تمامًا..

في النهاية، هي هنا..

تقيم بفندق أنيق يطل على البحر، موعدها معه بعد نصف ساعة، حيث سيمر عليها ليصطحبها إلى ركنه السري من هذا العالم..

نصف ساعة انقضت بين قضمها لأظافرها بتوتر، تبديل ثلاثة من الأثواب، اختيار منظار شمسي وتصفيفة شعر..

قبل بداية الدقيقة الثلاثين ارتفع رنين هاتفها ينبئها عن وصوله، طارت إليه.. جاورته في سيارته، قاد بها على طريق البحر لبعض الوقت قبل أن ينحرف عنه لأحد الأحياء القديمة، لا يغوص فيه كثيرًا.. فقط شارع واحد وكانا أمام مقره..

منزل عتيق وإن بدا متماسكًا رُغم أثر الزمان عليه.. صعدت معه حتى الطابق الخامس والأخير، كان مفتوحًا بباب عريض يطل على السطح، نسمات الهواء المحملة باليود

تحاوطها من كل زاوية، وزرقة الموج العاتي تستحوذ على انتباهها فور دخولها..

الطابق مكون من شقة واحدة واسعة للغاية بسقفٍ عالٍ، تخلو من الأثاث تقريبًا، إلا من أريكة، مقعد بسيط.. وفراش في غرفة جانبية يبدو أنه يستخدمه للراحة حين الحاجة.. تجاور بابًا آخر مغلقًا..

تطلعتْ للوحته المفرودة على الأرضية بالغرفة الرئيسية، الأحجار المتراصة إلى جوارها، بعض معدات العمل.. وقربها حامل رسم مألوف مع أوراق وأقلام رصاص!..

تجول معها في المكان يعرفها به، حتى انتهيا إلى الغرفة المطلة على البحر بالمثل، كانت تحوي العديد من أعماله التي رأتها بمعرضه، وأخرى جديدة لم يقع عليها بصرها من قبل..

تأملت كل شيء بانبهار..

تشممت عبق الفن بين جدرانه..

جنون مراحل البناء وشغف الخطوات المتتابعة وصولًا للختام والإنجاز.. للنجاح..

تأملت إحدى اللوحات، تمثل شارعًا أنيقًا كلاسيكيًا، بدا مألوفًا إلى حد ما فسألته:

ـ الشارع ده في محطة الرمل صح!..

رمق الصورة بتأمل مبتسم:

ـ ده حي مونمارتر، في باريس..

أخفت فمها بحركة خجول، التفتتْ إليه تكمل حديثها بانبهار لا يخبو:

ـ سافرت باريس!..

ـ سافرت بلاد كتير، بس مونمارتر ملتقى أهل الفن.. ما ينفعش أكون في باريس وما أزوروش..

عادت تتفحص اللوحة المتقنة، تستأذنه في أن تلامسها فيسمح لها، تمر بأناملها المرتجفة فوق صلابة الصخور وألوانها، ترى الدقة.. التفاصيل، روحه التي أضفت عليها حياة:

ـ أنت.. أنت...

عجزت عن وصف ملائم وهو لم يتعجلها، تركها تفكر حتى تمتمت بما أسعفتها به حروفها:

ـ ما حصلتش، فنان مش هيتكرر..

همس في أذنها تمامًا:

ـ أشكرك..

ابتعدت خطوة دون انتفاض، تدعي التماسك.. الثبات، وكل حواسها تذوب قربه، تأملت أخرى متجاهلة تسارع نبضها غير المنطقي.. كانت تمثل رجلًا وامرأة في وضع مخل، شعرت بسخونة وجنتيها، مررت بصرها وتعليقها وتمسك هو:

ـ فطرة العلاقة بين الذكر والأنثى..

لم يعجبها أن يجسد تلك العلاقة المتشعبة في محور واحد أطلق عليه الفطرة، استدارت إليه بمكابرة، تدعي القوة.. تتظاهر بالجرأة:

ـ العلاقة بين الراجل والست أسمى من مجرد...

تلعثمت حروفها في تتمة منعها حيائها عنها، لكنه لم يرحمها.. بل فنَّد بمنطقية:

ـ مهما بلغ سمو العلاقة بينهم، هيوصل للمرحلة دي في النهاية..

ودنا منها باقتحام:

ـ ذكر وأنثى.. وفطرة!..

انبرت تنأى عن حضوره المُهلك، تدور من جديد، ترنو ببصرها للوحة قريبة، تتشبث بها كمهرب آمن.. كطوق نجاة:

ـ اللوحة دي تشبه موودك اللي متعودة عليه..

تبعها بخطوات كسول، يجاريها في هروبها:

ـ كل لوحة بتختلف لأن إلهامها بيختلف..

طافت بناظريها بين مجموعة أعماله، التي في مجملها تحمل تجسيداً للمرأة:

ـ كلها ستات!..

جاوبها بجدية وعيناه تحاوطان فنه بنظرة فخور:

ـ الأنثى هي إلهام الجنون..

استدارت إليه، الغيرة كانت تتسرب لخلاياها بلا داعٍ أو حق:

ـ يعني كل لوحة من دول إلهامها ست مختلفة!.. عرفت العدد من الستات!..

انزوى جانب فمه ببسمة ماكرة وقد استشعر ما بها:

ـ حتى حي مونمارتر، كنت مع بنت فرنسية، بنت صديق لوالدي.. هي اللي عرفتني على المكان، وكانت دليلي في مدينة الفن والجمال الفترة اللي قضيتها هناك..

قطبت بغيظ، انفلتت من استحواذ حضوره المهيمن بارتباك:

ـ واللوحة المبهجة اللي فيها طفلة!..

ـ بنتي..

توسعت عيناها بذهول، التفتت إليه.. جذب بصره نهر العسل المصفى بين جفنيها:

ـ أنت متجوز!..

مط شفتيه برد باهت:

ـ كنت..

عضت شفتها السفلى فتابع حركتها كما في كل مرة، أبعدت وجهها مع ملاحظتها لوجهة عينيه:

ـ وراحت فين!..

ـ الله يرحمها..

رمشت بأسى متفاجئة:

ـ أنا آسفة..

حرك رأسه بلا انفعال محدد، لا الأسى.. لا الحزن، ولا الذكرى:

ـ من فترة طويلة..

حاولت تغيير فحوى الحديث، لا تريد أن تغوص في منطقة موحلة من مشاعره وأفكاره:

ـ وفين بنوتك!..

اقترب منها خطوة، يداهم جوارحها بالقرب.. بصرها بالغزو، أنفاسها بالاحتلال:

ـ شام الصحفية اللي مهتمة بحياتي الخاصة، ولا...

ـ أنا اللي مهتمة..

قاطعته بهمس دافئ رسم بسمة هادئة فوق شفتيه:

ـ في مدرسة داخلية، بنتقابل في زيارات الصيف..

تراجعت تفر من حصاره وإن كان بلا قيد حقيقي:

ـ المعلومة دي ما حدش يعرفها عنك..

ـ حياتي مش من المفترض تكون مشاع يا شام..

وهبته نظرة رائقة، ناعمة، مقدرة:

ـ أكيد معاك حق..

تجولت مجددًا، تخطو نحو اللوح الورقي، ترمق الخربشات السوداء على سطحه الأبيض:

ـ أنت بترسم كمان!..

تبعها، وقف في ظهرها.. رمق أوراقه من فوقه كتفها:

ـ دي مجرد خطوط، خربشة ببداية الفكرة..

أمسك بمرفقها يدفعها برفق، استجابت برعشة داخلية تطيع خطواته:

ـ اختاري المكان اللي يعجبك، واقعدي فيه..

تلفتتْ حولها بتعثر ضاعفه بتمتمة شغوف:

ـ محتاج إلهام من روحك..

تراجع يقف خلف لوحه، يمسك بقلم من الفحم.. يتابع شتاتها بعين مبتسمة كأنما يسعده حيرتها، طافت بنظرها أرجاء الغرفة.. دققت في أركانها، النوافذ.. الجدران التي تآكل لونها من بعض رطوبة..

استقرت عند نافذتين متجاورتين، تكادان تقاربان علو السقف، بسور قصير لا يتخطى النصف متر، جلست فوق أحدهما والهواء يداعب خصلاتها، الشمس تمنحها رونقًا ذهبيًا فريدًا، وابتسامتها الخجول تتمم كمال الصورة:

ـ حلو كده!..

طوقها بنظرة طويلة غامضة قبل أن يجيبها بكلمة واحدة:

ـ extraordinary..

بدأت يده بالعمل، يرفع عينيه إليها للحظات.. يعود للوحته، وهكذا لساعة كاملة تململت بنهايتها وبطنها تقرقر بجوع..

ختم لمساته المتتالية بسلاسة احترافية، أشار إليها بالثبات في موقعها وغادر الغرفة لدقائق، عندما عاد أخبرها بلطف:

ـ بعمل قهوة، وطلبت غدا..

ابتسمت بحرج، غمغمت بإثره:

ـ ممكن أعمل أنا القهوة..

بادر ببساطة باسمة اختطفت عقلها:

ـ الكوفي ماشين تكفلت بالموضوع..

أتى فتى التوصيل، حمل إليها الطعام.. كانت بضع شطائر من مطعم مأكولات سريعة شهير، تجاورا على الأريكة الوحيدة..

لا تتوقف عن الثرثرة.. الانبهار..

وهو يلتقط كل حركاتها وسكناتها بعين متوهجة..

حلَّ الليل، فاكتشفت أن تلك الوجبة أتت متأخرة بالفعل، أنهت شطيرتها بتلذذ، وجدته يخضعها لنظرة مدققة أعادت إليها حمرة الخجل..

لكن ما صعقها عقبها يده!..

يده التي امتدت إلى وجهها، إبهامه الذي مسح بقايا "الكاتشب" عن طرف شفتيها، والنهاية التي أوقفت قلبها عندما لعق إصبعه ببطء وحدقتاه مسلطتان عليها بلا اهتزاز..

تناثرت في عصف رياحه، تشتت، صمتت وكانت لا تتوقف عن الحديث في كل شيء وعن أي شيء، لكنه هو من تحدث بهمس عميق، بنبرة رخيمة شابتها خشونة عاطفية أجشة:

ـ أنتِ جميلة..

تيبس جسدها للحظات عاجزة عن الحركة..

أهذه سيطرة عقلية!..

سحر ما!..

شعوذة ربما!..

نظرته وحدها كان احتجازًا، اجتياحًا، غارة على عقلها وقلبها في آنٍ واحدٍ، جاهدتْ لتصطنع ما يسد رمق اهتزازها من ثبات، همهمت ببعثرة:

ـ دي عين الفنان ولا.. غزل!..

لمعت مقلتاه ببسمة وصل نصفها فقط لثغره:

ـ غزل..

غصت بلقمتها، سعلت باختناق، تجرعت بعض الماء المثلج واستقامت تختار الفرار:

ـ أنا لازم أمشي، اتأخرت جدا..

وقف يمنعها بقامته الطويلة، رفعت وجهها إليه تائهة:

ـ قصدك لازم تهربي..

يصحح لها بتقرير، وهي العنيدة.. صعبة المراس، صلبة الرأس تنجرف للعبته:

ـ مش متعودة أهرب من أي مواجهة..

اقترب خطوة اقتحم بها مساحتها الشخصية:

ـ يبقى خليكي قد التحدي..

جابهته بمكابرة، تواجها لدقيقة كاملة لم تستطع أن تتخطى ثوانيها الستون، ارتجفت وارتدت خطوة مع تبدل ما بعينيه، كان هناك رغبة لم يبذُل جهدًا في مداراتها، وهي رُغم كونها بكرًا في دنيا المشاعر، مبتدئة في أرض الرجال..

استوعبت نظرته..

خافت..

ليست مجرد رغبة، بل تطوقها سيطرة، تسيجها دائرة سوداء من غموض..

وهي تعشق غموضه، وتخشاه..

استسلمت للضعف، واختارت الهروب:

ـ أنا فعلا اتأخرت..

لملمت حاجياتها، قبل رحيلها استفسرت عن خربشاته، بتر استفسارها بصرامة قاطعة:

ـ مش مسموح بالسؤال ده يا شام..

شعرت بالحرج، اعتذرت بنبرة خافتة:

ـ كنت فاكرة إني ممكن أشوفه..

تبدلت ملامحه بغتة لابتسامة هادئة:

ـ هتشوفي.. بس العمل الكامل، متأكد إنك هتلهميني master piece تاريخي كله..

أجاد العزف على أوتار أنوثتها..

وتر الخجل، وتر الغرور.. ووتر الدلال..

أوصلها لفندقها، نامت ليلتها تحلم به.. بلوحة تتضمنها وَحيًا، بوجودها بين ثنايا عقله..

به معجبًا..

عاشقًا..

بل جنحت بها خيالاتها إليه زوجًا، أبًا لأطفالها وهي أمٌّ لابنته الصغيرة التي لم تعلم عنها حتى اسمها..

الحلم جنة..

لكن الوهم جحيم..

والفارق بينهما ضحل!..

.....

مرت السبعة أيام كالبرق..

صحبته نعيمها، قناعاته، معتقداته وأفكاره، حروفه الصامتة والمنطوقة..

فنه ولوحاته، جموحه وجنوحه..

تمنت لو أمكنها إطالة مدة بقائها أكثر، لكن كان عليها العودة للعاصمة، وما فجَّر سعادتها أنه وعدها بالتكرار..

ظلت تراسله، بعثت له بالمقال الذي كتبته عنه، تثرثر عن الصدى الذي حققه بين معجبيه، وأهل الفن عامة..

تلقي بين حواراتها التي لا تنتهي بسؤالٍ عن لوحتها التي ألهمته إياها، يخبرها أنها لم تنتهِ بعد..

ينقصها بعض اللمسات..

حجر أخير يفتش عنه!..

يتسلل إليها، بل يجتاحها، يتسلط على أفكارها، يمتلك عليها مشاعرها.. يسكن الفؤاد يومًا بعد يوم..

يسافر للقاهرة يومين، بحجة عمل.. فيلتقيان..

يمرر لها عجزه عن استكمال لوحته دون وجودها، تشعر بالسعادة.. بالانتشاء لحاجته لها..

تسافر إليه كما أراد..

يخفي عنها العمل، وتتكرر اللقاءات..

غذاء، عشاء، وحتى إفطار صباحي على كورنيش المنشية كبسطاء هذه المدينة الساحرة..

في الغد سترحل، تعود لأرضها ويبقى هو في أرضه..

طيلة ما يقرب من شهرين ونصف لم يتوقفا عن الحديث، التقارب، التفاهم..

قلبها يتساءل بتَمنٍ: متى سيطلبك للزواج أيتها المتيمة!..

يجيبه العقل بحكمة: ذلك الرجل من النوع الصبور، الفنانون شيمتهم الهدوء والتمهل..

وتجيب هي بتنهيدة حارة تليق بالحلم: "مالكوش دعوة أنتوا الاتنين، هو السايكو كده.. غامض ورزين وبياخد وقته، حتى في الحب والجواز"..

هنا همهم عقلها بسخرية: "يا واد يا تقيل"..

رمقته شذرًا كما لو أن ذلك ممكنًا.. الخيال يبيح كل المستحيلات فلمَ لا!..

استأنفتْ غيابها فيه، موعدها معه بعد ساعة.. استعدت تتأنق لأجله، عشاء بأحد المطاعم الراقية المطلة على البحر، ثوب أنثوي أنيق.. عطر ناعم، تصفيفة كلاسيكية بسيطة وزينة تناسب رقة ملامحها..

استقبلها بهمسة واحدة أسرتها:

ـ استثنائية..

أخجلها كعادته وراقبها باستمتاع، أقلها حتى المكان المنشود، تناولا وجبة شهية، راقصها على موسيقى حالمة..

في نهاية الليلة أنبأها بسره:

ـ اللوحة خلصت..

تعلقت بيده في غير تصديق، وقبل أن تتساءل أردف بخبث:

ـ تقريبًا..

تغضن جبينها بحيرة، رفع يدها لفمه يقبلها بكياسة، يفتح لها باب سيارته، يسألها بمكر:

ـ تحبي تشوفيها قبل ما تسافري!..

ـ ممكن بجد!..

لهفتها هي الهدف.. وقد فاز به..

أومأ لها بإيجاب صامت، استقر بمقعد السائق، ألقى إليها بنظرة غامضة:

ـ فاضل قطعة أخيرة، واللوحة تبقى جوهرة تاج أعمالي..

لم تصدق أنه سيريها إياها دون أن تكتمل تمامًا، الوقت شارف على منتصف الليل، لكن من يكترث..

هي معه دومًا بأمان..

أمام باب مشغله في الحاي الهادئ بهذا التوقيت توقف، أهداها واحدة من بسماته الخلابة، تمتم قرب أذنها:

ـ أنتِ كنتِ أعظم إلهام في حياتي يا شام..

أمسك بذقنها بين سبابته وإبهامه يجبرها على الالتحام بنظرته التي تخترق حواجز روحها، تهدم سدود تماسكها، رمشت بضعف.. بعشق.. برجفة أدمن خلقها بين حناياها، قضمت شفتها، حينها اعتصر أجفانه وزفرة كالنار تهجر أنفاسه، همس باقتراب حطم كل الحدود:

ـ أنا آسف..

وقبَّلها!..

احتجز الشهقة المأخوذة، الأنفاس المذهولة، الجسد المتصلب، والشفاه الغضة..

تراجع بثبات يُحسد عليه، مسَّ جفنيها المنغلقين بغياب بإبهاميه:

ـ من أول لحظة شفتك فيها وأنا عاوز أعمل كده..

ـ بيبرس!..

همست باسمه ضائعة، لكن قبل أن تفتح عينيها شعرت بوخزة، بشيء رفيع حاد يخترق عنقها التي كانت بين راحتيه..

وقتها سقطت في هوة سوداء مظلمة..

غابت حقيقة عن الوعي!..

.....

الفرق بين الحقيقة والوهم هو الألم..

وهي كانت تتألم..

كيف تخاف!..

ترتعب!..

تفقد كل اتزانها ورباطة جأشها.. في حلم!..

أفاقت إثر وقت قصير، كلا.. لم تكن عارية منتهكة بفراشه، لم تكن بغرفة إفاقة بمشفى وقد انتزع منها كليتها..

لم يسرق شرفها أو أعضائها، هو ينتوي سرقة هويتها.. روحها.. عقلها!..

مقيدة إلى طاولة جراحة تعجبت وجودها، غرفة مجهولة يبدو من وراء بابها المشرع ردهة مخبأه الذي كانا عنده قبل أن يفقدها وعيها..

ثيابها كاملة لم تُمس.. فمها مكمم..

يداها مغلولتان بأصفاد معدنية محكمة لا تُمكنها من الحراك..

حتى جسدها بالكامل مخدر، فاقدٌ للإحساس..

عقلها وحسب هو المستيقظ، عقلها هو ما يهمه أن يتابع تحفته الفنية في لحظات ختامها وكشف الستار عنها..

على أرفف تلتف حول كامل الجدران شاهدت شموعًا عطرية، تفوح برائحة تُصَدِّرِ الاسترخاء.. دخانها يتصاعد متمايلًا كأفاعٍ سامة من سلة هندي راقص متمرس، في الخلفية مقطوعة "كورساكوف" الأشهر على الإطلاق "شهرزاد"..

تتسلل بصوت خافت من أركان الغرفة الأربعة، بأجهزة حديثة موزعة بعناية..

رأته، يوليها ظهره.. يستعد لمجهول لا تدركه بذهنها المشوش، تقاتل للتحرر، لمحاولة فرار.. للتخلص من قيدها، والمحصلة صفر..

يرتدي معطفًا أبيض اللون يشبه خاصة الأطباء، يستدير إليها وكمامة طبية تحاوط وجهه، تلمح ابتسامته الرائقة بعينيه، الخطوط التي تنقشها وأهدابه السامقة حالكة السواد:

ـ هايل، صحيتِ في الوقت المناسب..

اقترب يشرف عليها، يرى تساؤلاتها الصامتة، عبراتها المذعورة، ينتشي بالفزع المحفور على ملامحها وحدقتيها المهتزتين:

ـ ما تخافيش مني يا شام، مش هاقتلك..

لمح الأمل يتجسد بنظرتها، توسعت ابتسامته مكملًا:

ـ هاخد منك بس أهم قطعة عشان اللوحة..

مرر ظاهر كفه فوق جبينها ووجنتها برقة:

ـ إلهامك مش عادي..

تراجع يفسح المشهد قبالة ناظريها، يدير عنقها بلين لترى لوحته المستقرة على الأرضية..

كانت لوحة ضخمة إلى حد ما، تكاد تبتلع ثلث مساحة الغرفة، شاطئ، بحر، جبل على الجانب، شمس بعيدة.. وامرأة..

امرأة عارية تستقر بإغواء فوق الرمال الذهبية..

امرأة دون رأس!..

شرح لها ببساطة كأنما يدرك أنه على وشك الوصول لمحطته الحاسمة وما بعدها غير هام:

ـ فاضل قطعة أخيرة زي ما أنتِ شايفة!..

صدرتْ عنها همهمة غير واضحة جعلته يربت على كفها المكبل بحنو:

ـ هاحكي لك حكاية!..

لولا الخدر الذي ينتشر بجسدها لصرخت حتى كَلَّ صوتها..

انحنى يقترب منها بوجهه الملثم، يرمقها بنظرة مشفقة، يساوي خصلاتها.. يهدي جبينها دفء شفتيه وقد أزاح كمامته:

ـ هو كان مجرد شاب بسيط، طموح.. فاكر نفسه فنان، حاول ينجح ويوصل فنه للي يقدره، لكن كل اللي قابله هو السخرية والاستهزاء.. كره الفن، كره البشر.. بعد عنهم كلهم، بس بعدها بشهور بسيطة لقى عمل من أعماله معروض باسم فنان تاني مشهور..

تنهد بأسف كأن ما حدث هو أمر محزن بالنسبة إليه:

ـ الغريبة.. إن الفنان ده هو أستاذه وقدوته، اللي كان دايما بيقوله أنت مش هتنجح.. عارفة عمل إيه!..

ارتجفت نظرتها وفضولها يطفو للسطح، رآه فتبسم بتفهم:

ـ حاول يقنعه يعترف بالحقيقة، يقول للناس كلها إنه سرقه، حلفه بالعشرة.. بس هو طلع ندل، حرامي وكداب.. قال له كلمتي أنا الفنان الكبير، قدام كلمتك أنت..

اعتدل يشد قامته، يناظرها من وقفته بجمود قاسٍ:

ـ قال له إنه ولا حاجة، ماحدش هيصدقه.. فقرر ياخد حقه بإيده؛ عارفة إزاي!..

عاد يميل فوقها، يحاوطها بوجوده القاتم المقبض:

ـ قرر يسرق منه كلمته اللي بيتفاخر بيها..

ابتسم بوحشية شرسة تليق بقاتل:

ـ أو قدرته على الكلام بمعنى أصح..

تنهد بصبر شارد، صمت للحظات، استطرد بذات الشرود:

ـ ساعتها اكتشف حقايق كتير كانت غايبة عنه، صديقه عشان ينقذ نفسه اعترف بخيانته، بإنه على علاقة بمراته.. إنهم الاتنين خونة، وإنه على استعداد يرجع له حقه..

أدار لها ظهره مجددًا وهي تجاهد لاستيعاب كل تلك الفوضى غير المفهومة:

ـ بس يسامحه..

هز كتفيه والتفت إليه بنصف وجهه.. بنصف عينيه وكامل قسوته:

ـ وما سامحش.. لا هو، ولا.. هي!..

انشغل بشيء ما أمامه!..

وتيرة أنفاسه تختل واتزانه يتزلزل بالغضب.. بنكهة الثأر المحترق:

ـ كان لسه غشيم.. جزار، الاتنين ماتوا في إيده!..

شهقت داخلها لا تدري عمَ أو عمن يتحدث، هل تلك قصته هو!.. هل يسرد عليها ماضيه!..

يخبرها أنه انتقم لنفسه ممن خانوه وبعدها أصبح شيطانًا يجول الأرض حاملًا منجل الموت، ليمزق به أعناق البشر!..

شعرت بجسده يرتج بأثر ضحكة ساخرة:

ـ بعدها اتعلم الجراحة.. كيف تصنع جراحًا في المنزل في خمس دقائق بدون رووت!..

رباه..

هو مجنون.. مختل.. فاقد للرشد والعقل..

ماذا سيفعل بها!..

عاد لوقفته الأولى قربها، يحمل بين أصابعه مشرطًا حادًا أرعبها:

ـ كل لوحة لها روح ما تشبهش أي لوحة غيرها، فيها لمسة خاصة.. ما ينفعش تتكرر أو تُستنسخ..

انحنى يجثم على صدرها كالموت، اتسعت عيناها بهلع:

ـ روح حية..

أمال رأسه لليمين، وأنامل يسراه تطوف وجهها، ينزع عن فمها اللاصق، يباغتها الشلل الذي أصاب لسانها بالمثل:

ـ آسف بجد، مش هتقدري تصرخي.. ومش هتحسي ما تخافيش، هتشوفي وتسمعي بس.. أنتِ عارفة!..

ضغط شفتيها بإبهامه، ارتعدت تتوسله بنظرة واهنة لم تؤثر به:

ـ اللسان هو أقوى وأشر سلاح بشري..

حشر إصبعه بفمها عنوة، جذب فكها السفلي يباعد بينه وبين العلوي قسرًا:

ـ هو وسيلة العقل في التعبير.. وأنا عاوز المصدر والوسيلة يا شام..

ابتسم بظلمة أحاقت بها ودموعها لا تتوقف عن السيل:

ـ كان ممكن ببساطة جدا أدمر عقله وعقلها بعد الخيانة، بس دمار العقل راحة.. المجانين في نعيم زي ما بيقولوا..

عرفها بنفسه..

كان هو!..

تلك هي حكايته!..

ـ الجحيم الحقيقي، إن العقل يكون واعي، بكامل قواه.. لكن وسيلته في التعبير...

مد المشرط تجاه حلقها، فمها الذي كبله بجهاز لا تدري كنهه:

ـ مبتورة!..

وختم المشهد الدامي بحماس.. بهوس.. باختلال:

ـ لسانك هو روح آخر لوحاتي يا شام..

أخيرًا تحرر صوتها..

صرختْ قبل أن يجذ لسانها كما أخبرها..

صرختْ دون توقف حتى استفاقتْ برعب سيجعل من النوم مهمة عسيرة بعد اليوم!..

***

الأمر خرج عن طور المزاح والأحلام المزعجة..

استيقظتُ أكبتُ صرختي حتى لا أوقظ النائم بجواري، لم أصدق ما جرى..

لم أصدق أن رجلي الذي انطويتُ تحت جناحه بالأمس أرمقه في هذه اللحظة بتوجس وريبة و.. خوف!..

انزلقتُ خارج الفراش بحذر، ذهبتُ لغرفة صغيري، جاروتُ "كريم" بفراشه وضممتُه بأحضاني..

استكنتُ لدقيقة قبل أن تقفز الفكرة لعقلي المجهد، الساكن الواجم عقب ما جرى..

ماذا لو كان زوجي مختلًا لكن حقيقته لم تظهر بعد!..

ماذا لو شب طفلي أو أحدهما معاديًا للمجتمع، مؤذيًا، قاتلًا مخيفًا!..

"الله يسامحك يا ليلو.. بوظتِ أفكاري ومعتقداتي وأحلامي"..

أردتُ البكاء بحزن وأسى على حالي..

لقد زرعتْ بعقلي ترهاتها فأسقطتْ نصف الأبطال الذين أحب من عليائهم بنظري، هشمتْ أصنامهم التي أعشق..

استيقظ زوجي فوجدني نائمة جوار طفلي، أيقظني برفق متسائل تجاهلته ومارستُ روتيني اليومي حتى رحل الجميع وبقيتُ وحدي..

تلك هي النهاية..

أنا الآن أعلم ما أريد، لكن سأؤنبها أولًا على فعلتها المشينة التي ارتكبتها بحقي..

لقد دنستْ عقلي، جعلتني أرى أن إيماني بهؤلاء الرجال هو حافة الهاوية التي لا نجاة منها..

ارتديتُ ثيابي، عقدتُ وشاحي واستقليتُ سيارة أجرة إلى منزلها، لم أداهم غرفتها كما السابق، انتظرتُ حتى أيقظتَها والدتها من نومها الثقيل المعتاد، جائتني قبل أن تغسل وجهها.. تتثائب بكسل وتساوي خصلاتها المشعثة الشبيهة بخيوط العنكبوت..

تربعتْ تجاورني بنظرة مستفسرة، ملول.. تتساءل عن أي رياح محملة بالشرور رمتني ببيتها على بكرة الصباح ربما، ابتسمتُ لها بحنق:

ـ اغسلي وشك الأول وتعالي..

عاندتني ترفع أحد حاجبيها:

ـ مالكيش دعوة، احكي لي بوظتِ الكاركتر المرة دي إزاي!..

ـ أنتِ عارفة إنه باظ يعني!..

عقدتْ ذراعيها بتحدٍ مستفز:

ـ أمال هاصطبح بطلتك البهية مجانًا مثلا!..

ضربتُ كتفها بقوة، تأوهتْ بصوتٍ عالٍ نهرتُها عليه:

ـ دلوقتِ زوزو تيجي تفتكرني باقتلك، اتهدي..

دلكتْ موضع الضربة بأنين:

ـ اتهدي أنتِ وارحميني، أنا هاقطع علاقتي بيكِ خلاص..

نهضتُ أجرها معي تجاه غرفتها، أغلقتُ الباب على كلينا وجذبتها لنجلس متواجهتين على فراشها:

ـ بصي.. أنتِ زرعتِ أفكارك القذرة في عقلي، بوظتِ لي كل الشخصيات اللي بحبهم.. صلحي غلطتك حالا..

رمتني بنظرة مستهجنة:

ـ أصلحها إزاي!.. أضربك بشومة أدخلك غيبوبة مثلا!..

أعدتُ لها نظرتها بذات الاستهجان وإن أضفتُ إليه بعض السماجة والتهكم:

ـ عسل يا إخواتي، اتصرفي..

اقتربتْ مني بفضول كبير، بدا في عينيها وعلى وملامحها:

ـ طيب قولي لي الأول، عمل إيه السايكو بتاعك!..

"ياختاااااي".. صرخ بها عقلي بنبرة وصوت محمد هنيدي في فيلمه الشهير الذي تنكر فيه كامرأة عجوز..

أدرتُ ناظري نحو مرآة تواجه جلستنا، لمحتُ حمرة وجنتي فشتمتُ خجلي الأبله الذي يضعني بمواقف محرجة:

ـ عمل بلاوي، أنا عملت ميكس من أكتر السايكوهات اللي بخاف منهم.. وواحد كان.. كان..

ـ كان إيه!..

أشعلتُ فضولها أكثر كما فهمتُ من لهفة حروفها:

ـ كانت البطلة بتعمل حركة كده بيركز معاها، حصلت معايا ومش هاقول أكتر من كده..

مررتْ تلك النقطة، تريد الوصول لزبدة الأمر:

ـ طيب قولي لي؛ كان مؤذي!..

ارتجفتْ شفتاي ببوادر بكاء خافت وأنا أستعيد مشهد الحلم، القيود، المشرط.. نظرته، ونيته:

ـ كان قاتل، عاوز يقطع لساني يحطه في لوحة يا ليلو..

أُخذَتْ للحظات ترمقني بذهول صامت ختمته بضحكة عالية ساخرة أغاظتني، زممتُ شفتي وانتظرتُها حتى أنهتْ وصلتها المستهزئة بآلامي وأحزاني:

ـ أنتِ تحفة أقسم بالله..

ـ شكرا يا أنسة..

ـ بس تستاهلي، عشان تسمعي كلامي، وتخليكي في جوزك وبيتك وولادك.. نعمة مش حاسة بيها والله..

ـ لأ.. ما أنا خلاص عرفت أنا عاوزة إيه!..

باغتُها أعلم..

ارتددتْ بظهرها تتأملني بغير تصديق:

ـ أنتِ ما بتتعلميش!..

اعتدلتُ أجاورها، أضم كتفيها تحت ذراعي، أقبل وجنتها وأستجديها بغنج:

ـ عشان خاطري يا ليلو، نفسي أعيش الخيال صح المرة دي..

فكرتْ لهنيهة طالت وأنا أحافظ على سكوني المهذب، أناشدها بالنظرة والضمة حتى تكرمت، تعطفت وتنازلت تخبرني بحسم جاد:

ـ آخر مشهد يا شام، choose wisely..

قبل أن أجيبها بقراري الذي اتخذته منذ استيقظتُ صباحًا أوقفتني:

ـ عارفة لو قلتِ قاتل ولا بلطجي ولا زعيم عصابة؛ هاقتلك..

تمسكتُ بكفها واللهفة تغمرني:

ـ لا لا.. خلاص، حرمت..

تحركت أعود لجلستي الأولى، أواجهها بقرار حازم:

ـ عاوزة العاشق الأفلاطوني.. اللي ما بيشوفش غيري في الدنيا كلها..

استهانتْ برغبتي وغضبها يتفجر:

ـ أفلاطوني!..

أصريتُ بحالمية وأنا أثق باختياري هذه المرة:

ـ أيوة.. عاوزة الديسنت..

الحاسة الخامسة

الحب كما الحلم، هو رُمانة ميزان القلب والعقل معًا..

******

في حروف شاعر هي إحدى المعلقات السبع..

هي قصيدة العشق والغزل والرثاء والبكاء..

هي الشطر بيته الأول، والبيت الأخير..

هي ملحمته، أسطورته..

هي ملهمة الكلمة والنثر والسرد، النشيد والرواية والغنوة..

هي اللحن..

هي المعزوفة..

هي طرب الروح، إيقاع الفكر، ونشاذ النبض..

راقبته من مقعدها وسط جمهوره بغياب كلي، يحادثهم بلباقة، بأناقة.. يتناقش بكياسة ونبرة راقية، حروفه متقنة المخارج.. نبرته بعمق مركز الأرض، نظرته باتساع مجرات الكون..

خصلاته التي تناثر فوقها ضباب رمادي تسحرها..

حركة أصابعه أثناء إلقائه لإحدى قصائده بناءً على طلب عشاقه تأسر بصرها..

هو شاعرها الخبير، الحالم.. القوي.. الدافئ، الجرئ، ملك التناقضات وسيد التوافق..

انتهت الندوة بنجاح كما أيقنتْ، تبعته وكان ينتظر اقترابها، يهديها بسمته الحانية، المتيمة كابتسامتها، يستقبلها بلهفة الفؤاد وتوق المشاعر:

ـ إيه رأيِك!..

مدحته وكلماتها عاجزة عن وصف ما يتملكها نحوه:

ـ تفوقت على نفسك، زي كل مرة..

احتوى يدها، لثم أناملها برفرفة شبه محسوسة:

ـ عشان عارف إنك موجودة، بتسمعيني وفي ضهري..

أهدته بسمة محبة:

ـ أنا دايما في ضهرك..

فتح لها باب سيارته، انتظر حتى استقرت بمقعدها وأغلقه برفق، جلس في مقعده وأدار المحرك قبل أن يسألها:

ـ تحبي تتعشي فين!..

ـ أي مكان معاك جنة..

تناولا طعامهما بمطعمها المفضل..

أخذ رأيها في أحدث دواوينه المطروحة بمعرض الكتاب الأخير، أثنت عليه.. امتدحتْ متانة تراكيبه وتوازن قوافيه..

بنهاية الليلة سارا متجاورين جوار سور النيل، يتأملان السطح وانعكاس ضوء أعمدة الإنارة فوقه بسكون..

كفها بيده، عينيها مقيدة بعينيه..

وهو خاضع لسحرها بالكلية، رُغم فارق العمر الذي يقارب الخمسة عشر عامًا سقطت في هواه وحلق في عالمها..

أتم عامه الأربعين قبل شهرين، وكان أفضل عام مر بعمره كله.. كانت هي معه..

أعزب منذ وُلد، حتى ظهرت بحياته وغيرت قوانين القلب وإن لم تزِح العقل عن مكمنه الآمن بعد..

وحيد إلا معها..

تائه دونها..

وهو رجل في العشق يشتته القرار..

محارب على شفا الهزيمة..

مقاتل يشتهي النصر..

همست له بنعومة وبصرها معلق بدُجنة السماء:

ـ مش عاوزة الوقت اللي بنكون فيه مع بعض يعدي..

التفتَ إليها يحاوطها بضمة بين جفنيه:

ـ ولا أنا..

استدارتْ تواجهه بجسدها:

ـ الشاعر ما بيلاقيش كلام يقوله لحبيبته..

أشار لفمه يغلقه كسحاب، وابتسامته يشوبها بعض من شقاوة:

ـ حبيبته معجزة، مافيش كلام يقدر يوصفها..

ابتسمتْ بدلال، هزت كتفيها وعادت بعينيها لسطح الماء الذي تشقه باخرة ضخمة ضوئها يغشي الظلمة:

ـ بيقول كلام حلو أهو..

اقترب منها قليلًا بهمس يموج بالعاطفة:

ـ عاوزة تسمعي كلام أحلى!..

رمشت دون أن تمنحه هدية الغرق بمقلتيها:

ـ ما عنديش مانع..

تحشرجت نبرته ببحة خشنة:

ـ بحبِك..

الحب هو الغوث..

هو النجدة..

هو الغرق..

هو الأرض والسماء..

هو الأمنية..

هو الحلم!..

***

"المشهد قصير قوي يا ليلو"..

" ديسنت بقى.. معلش!"..

وكزتُ ذراعها واستقمتُ بنية رحيل:

ـ مش مهم، المهم إنه جميل ودافي.. حنين، وشاعر كمان..

تنهد عقلي في المنتصف، يشجعني أخيرًا على اختياري المثالي:

"هيييييح.. المرة دي طلعتِ بتفهمي"..

أوصلتني لباب منزلها، كانت تعبث بهاتفها في غير انتباه حتى أنها اصطدمت بي عندما توقفت، نهرتها بانزعاج:

ـ ما تفتَّحي يا بنتي..

هزت رأسها تأسف لحالها، تحيا دور الضحية وتتظاهر بالبكاء:

ـ بقى كده!.. المصلحة خلصت وبدأ وشك الحقيقي يبان..

عقدتُ حاجبي باستنكار:

ـ مالِك يا دراما كوين!.. أنتِ سخنتِ ولا إيه!..

حركت فمها بسخافة تخبرني:

ـ ماليش، بعت لك لينك رواية، فيها سايكو من اللي بتحبيهم..

توجستُ من حديثها، بعد ما حدث لم أعُد أحبهم.. ماذا لو كان القادم يريد جذ عنقي، لا لساني وحسب!..

سألتُها بحيطة حذرة:

ـ إشمعنى!.. بيعمل إيه!..

لوت شفتيها بلامبالاة:

ـ مافيش، حب واتجوز وخلف وتنمر على مراته..

ضيقتُ أجفاني حول نظرة قلقة:

ـ بس كده!..

ضربت كفًا بكف كأنما تسبني في قلبها:

ـ هو التنمر الزوجي ده حاجة بسيطة يعني!..

بررتُ باندفاع أوضح مقصدي:

ـ ما أقصدش، بس يعني مش قاتل أو مغتصب أو...

ـ لا هو بس دبحها في آخر الرواية..

ـ إيه!..

بترتْ كلماتي بتلك النهاية السوداوية، نطقتْها بسلاسة عجيبة.. مخيفة.. هذه الفتاة شريرة!..

صرختُ في أذنها تقريبًا، ارتددتْ خطوة للخلف تلعن صداقتي، يوم لقائنا ربما واللحظة والسبب:

ـ دبحها بالغلط، بالغلط..

ـ وماتت!..

ـ شبعت موت يا حبيبتي.. أُمال السكينة كانت بتهزر مع رقبتها!..

وأصدرتْ صوتًا من بين أسنانها وازى إشارة من إبهامها تجاه عنقها في إيحاء نحر أرجفني، سارعتُ بالهروب من تلك المختلة التي هي صديقتي الوحيدة:

- لا شكرا.. مش عاوزة أقرا، أنا خلاص هالتزم بالديسنت، ولا شيء إلا الديسنت..

هرولتُ للخارج، أشدُ الباب فأغلقه قبل أن تتبعني برواية جديدة تمتلئ بالدماء، تلك الفتاة ليست شريرة فقط، بل بها نزعة سادية تتلذذ بخوفي ودموعي كقارئة مرهفة المشاعر..

وصلتُ لمنزلي متأخرة بعض الشيء، سيكون الغذاء اليوم خفيفًا سريعًا، من أحد المطاعم القريبة ولا عزاء لبقية الشهر والمرتب الذي يتسرب من بين أصابعي.. بل يطير..

مر اليوم كغيره، سبقني زوجي للفراش فتعللتُ ببعض العمل بالمطبخ حتى غرق في النوم..

اندسستُ إلى جواره بهدوء، وغرقتُ كما ينبغي أن يكون الغرق..

هذه المرة ستتجسد الأمنية في دنيا الخيال..

سأقبض على الوهم بيد الطموح، وأبقى معه حتى الأبد!..

***

ماذا لو كان الحب هو الزاد!..

هو حد الشبع والكفاية!..

هو الصاحب في رحلة الحياة، والرفيق في دروب العمر!..

ماذا لو استغنينا به عما سواه!..

كما فعل هو، واستنكرت هي.. هما في حالة عشق منذ ما يقرب من عامين، وطوال ذلك الزمان غير القصير لم يُلمح لقرب شرعي، أو ارتباط رسمي..

لمرات حاولت أن تشده لذلك الطريق، فكان يتهرب منها ومنه ومن رباط مقدس تراه المصير المحتم لذاك العشق..

وصل بها لمواجهة مباشرة وصريحة فاضت معها دموعها:

ـ كنت فاكرة إنك بتحبني!..

لاحق اتهامها بتبرئة، باعتراف.. بخنوع للغرام وخضوع للهوى:

ـ إوعي تشكي في حبي يا شام..

هتفتْ به محتدة، باكية، حزينة:

ـ وآخرة الحب ده إيه يا بيبرس؟..

ـ الحب مالوش آخر..

همس لها وأردف يبرر، يدافع، يسوغ رغبته ويُجمل قراره:

ـ الحب أجمل حاجة في الدنيا، وأنا شاعر إلهامه حبك..

مسحتْ عبراتها بانكسار:

ـ يعني إيه!..

زفر بصبر، احتوى كفها يمنحها دفئه:

ـ الجواز، والقرب ده بينا.. الحياة العادية التقليدية، البيت والمسؤولية والولاد؛ كل ده هيطفينا.. هيكسر هالة الحب وقدسية المشاعر..

حرر يدها، استقام يتحرك بمكتب عمله بضيق:

ـ هيحطنا في إطار ممل، زي أي راجل وست يا شام..

وتهكم بلذوعة لأول مرة تسمعها بنبرته:

ـ هيحصرنا في صورة ما تفرقش حاجة عن اللي حوالينا، مجرد تكرار باهت وسخيف..

نهضت تتبعه لا تصدق ما يقوله..

لطالما سمعتْ أن العشاق لا يتحملون الفراق، يشتهون أكثر.. يشغفون أكثر.. يتوقون ويتلهفون أكثر وأكثر..

لكنه حطم تلك القاعدة وشوه تابو العشق المألوف..

"عشق الروح"..

همسة ساخرة تدخل بها عقلها فنهرته، لكنه لم يتوقف.. أكمل بسخرية أشد:

"عشان عشق الجسد فاني وكده"..

مسحتْ وجهها بصبر، قررتْ تجاهل ذلك الأبله وتوجهت لعاشقها تتشبث به:

ـ دي فطرة الكون يا بيبرس، نكون أسرة.. يكون عندنا ولاد وبيت وحياة مستقرة..

هز رأسه بنفي حاد بينما ينأى عنها:

ـ لأ يا شام، مش هاقدر.. خايف على حبي ليكِ يتأثر بالقرب ده..

عادتْ لبكائها وإن انتحبت، صرخت في وجهه بغضب حزين:

ـ أنا مش مصدقة اللي باسمعه منك، أي راجل في الدنيا بيحب واحدة يتمنى يقضي الباقي من عمره معاها..

شدت قامتها..

تبتر..

تُسقط المقصلة وتفصم عنق المشاعر والروح:

ـ اختار، قرر بنفسك.. نكون مع بعض للأبد، أو تخرج من حياتي للأبد..

ـ شام!..

لامها بعتاب ضعيف.. تماسكتْ تدعي القوة، تفتعل الثبات:

ـ اختار يا بيبرس..

أحكمت العقدة..

حاوطتْ أنفاسه بأنشوطة الاختناق..

حشرته بركن لا مناص عنه؛ فاختار..

اختار الفراق!..

.....

بعض العشق يؤجج ناره البعد..

لم يتحمل.. لم تتحمل؛ فكان الوصال!..

شغلت عقلها وقلبها بعملها، وفقد هو كل شغف بشعره وعمله فذهب إليها..

هجر عقيدة الخوف وآمن بميثاق التلاقي..

وجدته أمامها بمقر الصحيفة التي تعمل بها، شهرين مرا..

نحل جسده بعض الشيء، طالت لحيته.. غارت عيناه والسهاد حفر قسوة حضوره فوق حناياه..

أتاها وكل ما فعله فور أن وقع بصره عليها كان همسًا مشتتًا، سؤالًا حائرًا، افتقاد وشوق ولعنة استسلم لها القلب:

ـ تتجوزيني!..

أهدته دموعها..

نبضها..

وقالت.. "نعم"..

.....

للحلم قوانين خاصة، لا تحمي المغفلين في أرض الغرام..

بل تنصر العشق، وتضعه فوق كل قانون..

كل الحواجز هُدمت، جميع العوائق ذُللت..

خلال أقل من شهر أصبحت زوجته..

والليلة يُغلظ الميثاق..

الزفاف كان هادئًا كما أراد، لم تخالف هي إرادته فسعادتها أن تكون معه، وما قبلها لا يهم..

الآتي هو الغاية..

ولأجل تلك الغاية تهون كل وسيلة..

فتح باب عشهما الصغير، انحنى يحملها، تعلقت به.. تشبثت بعنقه تريح رأسها على كتفه، تستشعر قبلته الخافتة عند مفرق خصلاتها، عبر بها عتبته، أغلقه بقدمه وأنزلها لا يحررها من دفء ضمته..

يهمس لها بما يعتمل في نفسه من جنون بها ولها:

ـ أنا أسعد راجل في الدنيا النهاردة..

احتوى وجنتها براحته، غرق في عسل عينيها:

ـ حلمي بين إيديًا..

نفت بحزم صادق وكفها تحاوط خاصته فوق وجهها:

ـ أنا اللي حلمي اتحقق..

ثم تنهدت برغبة في الغياب بين ضلوعه التي تتسع لها وللكون كله:

ـ بحبَك يا بيبرس..

العشق هو طوق النجاة، فقط لو آمنا به وصدقناه..

.....

العمر بالأحلام مجرد خرافة..

قد تصبح عجوزًا في تلك الثواني القصيرة التي تمتلئ بالتفاصيل داخل أعماق حلم..

عشر سنوات على اكتمال العشق..

على أسطورة خطها الشاعر وملحمة تناثرت في حروف قصائده..

عشر سنوات من المثالية والتتيم..

من قرب لا نهاية تنتظره، واستحواذ لا بداية له..

تغفو بين يديه، يضيع بين يديها.. والامتلاك هو عنوان القصيدة، هو كل الشطور، هو الوزن والقافية..

هما معًا غارقان في بحور شعر عاشق يستحق الخلود..

مثالية!..

نعم، حياتها معه تستحق أن تدوم للأبد، حتى تنقطع الأنفاس، لديهما ثلاثة أطفال، فتاتها الكبرى ابنة أبيها، وتوأميها الصغيرين المتعلقين بها هي..

تضاعفت وسامته مع تخطيه لعامه الخمسين، غزا اللون الرمادي خصلاته حالكة السواد، وظل بريق عينيه يتوهج كبرق خاطف يضرب الأرض كلما سقط بعينيها..

كانت تخبره دومًا:

ـ بحبَك..

فيجيب بمثالية رجل نبيل:

ـ بحبِك..

لكن بين حبها وحبه؛ ظل هناك شيء غامض.. مفقود!..

خاتمة واقعية

بين الوهم والحقيقة، لا يباح سقوط..

**

فتحتُ عيني، باختيار حر..

لا صفعات.. لا حزن..

لا ألم.. لا خوف..

كنتُ في حلمٍ مثالي، فهجرتُه عائدة لواقعي بإرادتي..

ذاك الحب، تلك الحياة..

نعيم جنان لطالما تمنيتُها، الدفء، الرومانسية، الزهور والشموع والهدايا والمفاجآت..

ما الذي لم يكُن هناك!..

لمَ عدتُ!..

لم اخترتُ واقعي على حلمي الأشبه بمعجزة!..

الجواب كان واحدًا، لا يحتمل تفنيدًا أو مواراة، لا يقبل تهربًا أو جدلًا..

هو..

هما..

زوجي وطفليّ..

ربما صديقتي على حق!..

أنا كنتُ راضية، كنتُ أحب، كنتُ غارقة حتى النخاع في تفاصيل أسرتي الصغيرة.. ذلك الذي أدركه عقلي الباطن، وتغافل عنه وعيي الأحمق..

رفضه، تمرد، طمع فيما هو أكثر.. وحتى عندما ناله لم يكُن كافيًا ليستغني به عما امتلك من قبل..

أدرتُ رأسي أنظر لزوجي فوجدتني وحيدة بالفراش..

رمقتُ الوقت في هاتفي وانتفضتُ من نومتي بذعر، الساعة تخطت الثامنة والنصف.. حافلة مدرسة ابني!..

ركضتُ للخارج بخصلات مبعثرة، أتعثر في خطواتي.. لكنني لم أجد سوى زوجي..

يساعد "كريم" في ارتداء ثيابه، يرفع وجهه إليّ، يبتسم بدفء محبب:

ـ صباح الخير..

ارتبكتُ بلعثمة:

ـ صباح النور.. باص معاذ..

طمأنني بينما يستقيم، يقترب مني ويهدي جبيني قبلة لا مبرر لها:

ـ ما تقلقيش، صحيته ولبس، عملت له اللانش بوكس ونزلته في ميعاده..

حمل حقيبة ابننا الأصغر، يدفعه أمامه.. يتناول من فوق سطح المطبخ الرخامي المفتوح صندوق غذائه:

ـ هاوصل كريم الحضانة على ما تفوقي..

واختفيا من أمامي!..

لم أفهم ما يجري، لم أستوعبه.. ظللتُ أفكر به وأنا أغسل وجهي، أصفف شعري وأذهب للمطبخ في محاولة لصنع قدحٍ من القهوة لتصفية ذهني المشوش..

وكانت بانتظاري هناك مفاجأة أخرى!..

عصيري المفضل، إفطار خفيف محضر ومغطى بانتظار..

تلك كلها هي وجوه للحب، لكنني كنتُ أفتش عن غرام الروايات..

عندما صنع كوب الشاي، وسألني هل أريد واحدًا!..

حينما شعر بالجوع فحضر لنفسه شطيرة رُغم أنني جالسة إلى جواره ألعب بهاتفي..

وقتما استيقظ باكرًا فتناول إفطارًا خفيفًا بالمطبخ وذهب لعمله دون أن يوقظني..

ذاك هو الحب..

أظنني تجمدتُ أرمق المشهد بذهول حتى عاد هو ليراني على تلك الحالة، يبتسم لي بإدراك:

ـ عارف إنك تعبانة، ما رضيتش أصحيكِ..

حمل صينية الطعام، سبق خطواتي إلى غرفة المعيشة فتبعتُه مغيبة.. جاورتُه نتناول إفطارنا سويًا بهدوء صامت حتى انتهينا، ناولني كأس العصير محتفظًا ببسمته التي لا أملك لها تفسيرًا محددًا حتى بدأ حديثه:

ـ شام.. أنا عارف إني مقصر معاكِ، ما بين الشغل والبيت والولاد مافيش وقت لينا سوا زي زمان..

مسح أثر القشدة من فوق شفتي فضربتني صاعقة جديدة:

ـ أنتِ بقى لِك فترة متغيرة، قلقانة وتعبانة.. عشان كده قلت أعملك مفاجأة..

تحشرج صوتي وأنا أسأله بهمس شبه مسموع:

ـ مفاجأة إيه!..

سحب دفقة من الهواء ملأ بها صدره قبل أن يجيبني ببساطة:

ـ أخدت أجازة من شغلي تلات أيام، هنسافر اسكندرية نقضيهم هناك قبل الشتا ما يدخل علينا..

دنا مني أكثر:

ـ أنا وأنتِ وبس..

لم أصدق:

ـ بجد!..

وتفهم هو:

ـ بجد جدا..

نهض يحمل بقايا الطعام عائدًا إلى المطبخ:

ـ يلا.. هانضف أنا المطبخ وأنتِ حضري الشنطة..

سِرتُ خلفه كالمنومة..

هل كانت تلك النعم بين يدي وأنا أتعامى عنها!..

أم أنها مستحدثة!..

نهرني عقلي معنفًا بقسوة:

"أنتِ اللي عميا، حتى صاحبتك قالت لك 100 مرة جوزك طيب وكويس وبيحبِك"..

حضرتُ حقيبة مناسبة، ملأتها بثياب كلينا..

كان غريبًا أن أترك طفليّ، مخيفًا لم أجربه من قبل.. طمأنني بحنو:

ـ ما تقلقيش، هيفضلوا مع أبويا وأمي، وأنتِ عارفة جدهم بيخاف عليهم أكتر مني ومنك..

ترددتُ بقلق:

ـ بس كريم!..

هدهد قلقي بلين:

ـ معاوية أخويا هيعدي يجيبه من الحضانة، وأنتِ عارفة هو متعلق بيه قد إيه!..

تذكرتُ أخيه المراهق.. ذلك الفاسد الصغير، بذرة عابث العائلة ربما، لاحقتُ حروفه:

ـ معاوية!..

ضحك فكانت كأنها أول مرة أسمع فيها ضحكته الرجولية الدافئة:

ـ هيبوظ أخلاقه أنا عارف.. بس يومين، مش هيلحق..

حاوط خصري يضمني إليه:

ـ اليومين دول مش عاوزِك تفكري في أي حاجة، ارتاحي واسترخي عشان بعد كده هنرجع للشقا من تاني..

رمشتُ بارتباك..

عيناه العشبيتان..

خصلاته السوداء الناعمة..

لقد تلبستْ ملامحه كل فارس قابلته في أحلامي، حتى وإن بدلتُ فيها بعض الشيء لتناسب دنيا الخيال، ناديته بتعلق:

ـ بيبرس..

ـ نعم!..

أرحتُ وجنتي أنصتُ لنبض قلبه:

ـ ربنا يخليك ليَّ..

ربتَّ على خصلاتي وخللها بأصابعه:

ـ ربنا يخليكِ أنتِ لينا يا شام..

وأبعدني ينظر في عيني:

ـ إحنا من غيرِك ولا حاجة..

أوشكتُ على البكاء..

أنا حمقاء، بلهاء، استحققتُ عقوبتي التي نِلتُها بأحلامي الوهمية..

من يتمسك بخيال والواقع رُغم صعوباته هو حقيقة الحياة!..

أردتُ تجربة أمر أخير، فدنيا الأحلام مغوية رُغم كل ما فات.. كررتُ النداء، جاوب بذات الـ"نعم".. نقرتُ فكي بسبابتي وأنا أمضغ شفتي بدلال:

ـ هانادي لك تاني بس مش عاوزاك تقول نعم!..

رمقني بتساؤل حائر أجبتُه بأن حاوطتُ عنقه بكفي، أشاكس خصلاته بأناملي، أتغنج في نطقي لكلماتي كما لم يألف مني البتة:

ـ قولي كده.. "يا قلبه" أو "يا عيونه"..

***

وهكذا سيداتي آنساتي سادتي؛ بطلتنا لا تفتأ تريد المزيد..

مازالت محاولاتها مستمرة لجر الخيال إلى دنيا الواقع، تتطلع لكمال وجنون العشق، لحالميته..

وبين يديها الدفء، المودة، الرحمة..

سعد زغلول قالها حكمة لا بديل عنها..

"مافيش فايزة"..

"فايزة مين الله يخربيتك!"..

عفوًا.. عفوًا، إنه مصححي الغبي ثانيةً رُغم أنني أخطُ أحرفي على حاسوبي المحمول..

"فايدة"..

بالضبط..

سعد زغلول قال: "مافيش فايدة"..

خمس حواس للحب

تمت بحمد اللّه

2021 /2/ 12

صابرين الديب

جروب حلم-هن الأدبي